سلسلة كتب التصوف الإسلامى

الكتاب الرابع والثلاثون

من كنوز العلم النافع

فى المنهج الصوفى

للعارف بالله

إسماعيل صادق العدوى

إمام الجامع الأزهر سابقاً

سلسلة كتب التصوف الإسلامى

الكتاب الرابع والثلاثون

من كنوز العلم النافع

فى المنهج الصوفى

للعارف بالله

إسماعيل صادق العدوى

إمام الجامع الأزهر سابقاً

أساس معنى التصوف

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمـــن الرحيـم، والصــلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمين، وعلى آله وصحبــه أجمعين.

أولاً .. مبدأ التصوف هو الإيمان والعمل الصالح والإقبال على الله تعالى:

نحن على موعد للحديث عن قضية قد تكلم فيها علماء ولا يزالون وهــى قضية التصوف أو قضية المتصوفة.. أو قضية الصوفية.

وهذه القضية من القضايا الهامة التى يجب تناولها بأمانة حتـــى يتعلــم الناس حقيقة الفصل فيها.

وقضية التصوف أو قضية المتصوفة أو قضية الصوفية.. هــى قضيــة تحتاج إلى عدم التحيز.. لأن الكلام فيها لا يأخذ جانباً ثم يعـــارض الآخــر وإنما يتناول القضية بأبعادها.

وعندما نأتى بالمرجع الصادق.. وهو المرجع الذى يحكم علــى جميــع القضايا فى ظاهرها وباطنها.. هذا المرجع هو الكتاب والسنة: ﴿فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ (النساء: ٥٩).

والإسلام عندما ينظر إلى أى شئ يتنازع فيه.. ينظر إليه بحكم الله. بمــا حكم الله فى هذا الشئ؟. وبما حكم الله فى هذه القضية المختلف فيها؟.

هل يجوز أن نقر هذا الأمر أو لا نقر هذا الأمر؟.

فهناك أمور يحكم عليها بأنها حرام فلا نزاع فيها كالبيع والشراء. فجاء النص: ﴿وأحل الله البيع﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وجاء فى قضية الحرمة: ﴿وحرّم الربا﴾ (البقرة: ٢٧٥).

فلا يأتى واحد من الناس يختلف فى الربا.. ولا يأتى واحد آخر ويأتى برأى جديد فى حرمة الزنى.. فالزنى حرام.. والربا حرام.

ولا اختلاف فى فرضية الصلاة وفى أوقاتها: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ (النساء: ١٠٣).

ولا اختلاف فى الزكاة، وهكذا..

والنبى ﷺ قد وصف هذا بأنه بين (فالحلال بين والحرام بين).

هناك شئ ثالث وهو ما فيه شبهة.. فما فيه شبهة يترك.. حتى يتخلص الإنسان من شائبة ولو بعيدة فى الحرمة.

(وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه. فمن حام حول الحمى يوشك أن يواقعه). وفى رواية أخرى يوشك أن يقع فيه.

وأنا لا أعرّض لهذه الشبهات إلى التصوف.. فلا أقول إن التصوف قضية مشبهات أى فيها شبهة.

ولكن التصوف فى حد ذاته من حيث ما يقره الإسلام.. من الترقى ومن علو مقام المؤمن عند ربه. ومن السعى بهمة العبادة إلى مرضاة الله فهذا هو الجوهر الذى نقوله فى الإسلام.

فإذا قلت إن رقى العبد وإن سعيه إلى الدرجات العليا.. هذا أمر لا يختلف فيه اثنان. فالله سبحانه وتعالى يحب عبده الذى يزداد قرباً إليه.

يحبه ويرضى عنه.. لأنه عبد يفكر فى مرضات الله ويسعى لذلك.

من حيث هذا فلا خلاف. وهذا ما أبدأ به هذا الدرس.

وهو جوهر الإسلام في وصول العبد إلى الله.

والمتصوفة عندما يتناولون هذه القضية يتناولونها بأساليب مختلفة.

فأبدأ في هذا الدرس بأهمية الإيمان الشديد في موضوع اهتمـــام العبــد للوصول إلى الله حتى تصفو نفسه.. ويتطهر فؤاده.. وترق روحه.. ويسـمو بأسباب العلا.

ويزكي نفسه.. فتزكية النفس أي رقيها.. تزكية النفس أي تصفيتها مـــن عدم السمو.. تزكية النفس هي أن تنتقل من درجة إلى درجة أفضل.. تزكيـة النفس هي ما أراد الله لها من الجمال وما حقق لها من الأسباب العظيمة التي تجد نفسها وقد نعمت بالوعد الذي وعد الله به.. كما وعد الله تبارك وتعالى.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيـاتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (البقرة: ١٢٩).

تزكية النفس هي غاية الإسلام.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلـــى﴾ (الأعلى: ١٤-١٥).

فربط بين تزكية النفس وبين الذكر. ثم ذكر بعد ذلك الدنيا وكيف تقلـــل من هذا الشأن.

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى﴾ (الأعلى: ١٦-١٧)

فذكر الله تعالى يجعل غاية الإنسان الآخرة.. أما ذكر الدنيا والشغل بـــها يجعل الإنسان بعيداً عن غاية الإسلام وهي ذكر الله للنجـــاة يـــوم القيامـــة وللسعادة في الجنة.

يقول جل وعلا: ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواهـــا * قـــد

أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ (الشمس: ٧-١٠).

فكل هذا الأمر يدور حول نفس المسلم.. أو بمعنى أوسع حول نفس الإنسان. فالإنسان إما أن تزكو نفسه وإما أن يزكيها بالإيمان.. وإما أن يجعلها فى غياهب الكفر.

فأول الكلام: لقد آمن الإنسان فزكى نفسه بالإيمان.

فالمؤمن قد زكى نفسه بدرجة الإيمان فأصبح أعلى من الكافر.

هذه قضية فى أولها مسلم بها.

فمن آمن غير من كفر. فمن آمن زكى نفسه بالإيمان أى طهرها بالإيمان أى طهرها من الكفر الذى كان يدنسها.

فهذا كافر قد دساها فى بلاء الكفر وبراثن الضلال وأسقطها.

وهذا إنسان أعلى نفسه بالإيمان إلى درجات الإيمان.. فتخلص الإنسان من الكفر بالإيمان.

هذه هى الدرجة التى علا بها الإنسان فى أول الأمر.

هذا يتفق عليه كل العقلاء.. يتفق عليه كل من تكلم فى الإسلام على اختلاف مشاربهم.. فمن آمن أعلى درجة أى أعلى منزلة من الكافر فلا يستوى الكافر والمؤمن.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور﴾ (الرعد: ١٦).

ويقول فى آية أخرى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ (الجاثية: ٢١).

أى كانوا كفاراً فعملوا السيئات.. فجمعوا بين السيئين أو بين القبيحين.. استفهامات القرآن للفرق بين هذا وهذا.. من هو أدنى ومن هو أعلى.. ومن زكى نفسه فطهرها ومن دنس نفسه فدساها..

﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كـالذين آمنـوا وعملـوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ (الجاثية: ٢١).

فالذى آمن وعمل صالحاً.. لا شك أنه أرقى وأعلى وأزكى وأشرف ممن كفر وعمل غير صالح.

فالإيمان قد جعل الإنسان فى درجة يحبها الله.. فالله تعالى يحب من آمـن ويكره من كفر.

والكافر حيوان بل هو أحقر درجة.. بل أحقر دركاً.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هـم أضـل سـبيلاً﴾ (الفرقان: ٤٤).

فالحيوان فى درجة أعلى من الكافر.. هذا بالنسبة لمعنى الرقى إلـى الله فهذا الكافر مهما صنع فكفره يحجبه.

والمؤمن عندما يصنع عملاً صالحاً.. يخترق الحجب.

فالكافر محجوب أصلاً مهما عمل.

والمؤمن بإيمانه يزداد بحسن العمل.

أما الكافر فلا يقبل منه العمل ولا يرقى به مهما صنـع فـى الدنيـا.. فيشترط فى كل الإسلام.. فى الصلاة أن يكون مسلماً بالغاً وعاقلاً. وهكذا..

فلو صلى الكافر ملايين الركعات وهو كافر فلا تقبل منه صلاته. ولـو أنفق ما فى الأرض جميعاً. لا يقبل منه. فلا يعلو درجة بالأعمال وهو كافر. وفيصل القول.. الإيمان هو الباب الأول الذى يدخل منه الإنسـان إلـى الله ليرقى بإيمانه.. فالإيمان هو الأصل.

يقول الله تبارك وتعالى فى شأن الكافرين: ﴿والذيـن كفـروا أعمالـهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنـده

فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ (النور: ٣٩).

ويقول الله تعالى: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت: ٤١).

فلا قدر لعمل يظن به صاحبه أنه يرقى به إلى الله وهو كافر. ولكن ظن المؤمن.. هو الذى يرقى به إلى الله. فالمؤمن إذا ظن أن الله يرقيه بعمل من الأعمال "فالله عند ظن عبده".

هذا هو ما نبدأ به. فى أن يتزكى المؤمن. أو كيف يرقى وكيف ينال درجات العلا.

فالمؤمن الذى يريد أن تصفو نفسه.. أن يجعل غايته الله.. فيتخلص من المعاصى كما تخلص من الكفر.

بعد الإيمان.. العمل الصالح.

لأنه على عقيدة على أن الذى يرقى به إلى الله هو إيمانه وعمله الصالح.

فالذى يحب الله تعالى ويريد أن يصل إليه.. لا يصل إليه بما يكره ولا يصل إليه بما يغضبه.. ولا يتقرب إلى ما يبعده عنه.

فكلمة إلى الذين يبحثون عن الموصول وعن الصلة.. وعن الرقى هذا هو الأمر الأول:

الإيمان والعمل الذى يرضى الله تعالى

يقول الحديث القدسى:

﴿أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا، وإن

أتانى يمشى أتيته هرولة﴾.

إذن هناك إقبال من العبد على الله لا إدبار.. وهناك ذكر لا غفلة فالإقبال على الله بذكر الله.. وإقبال الله على العبد بالقبول والرحمة.

فالعبد يقبل.. والله يقبل.

ولا يقبل الله على من أدبر وإنما يناديه بالتوبة بالرجوع. وإنما يقبل على من أقبل. فمن أقبل على الله.. أقبل الله عليه. ومن ذكر الله.. ذكـــره الله إذن وصلنا إلى عبد يعلو.. ويسمو ولا يسقط.. ويجتهد فى أن يقبل وأن يقبل وأن يقبل. ويخشى من أى شىء يجعله مدبرا بعيدا عن الله.

وكلنا يعلم الحلال والحرام. المؤمن الذى يقبل.. يقبل بما أحل الله وبمـــا يرضى الله. يعلم الحلال ويعلم ما يرضيه ثم يعمل. ويعلم الحرام وما يغضبه ثم يبعد.. ثم يبعد عن الحرام.

قضية التصوف قضية حقيقية إذا تناولها الناس من هذا الجانب. ولا نجـد أحدا يخالف هذا المبدأ.

العبد الذى آمن.. يقبل على الله.. بدين الله أى بما يرضى الله.. وأن يبعد عما يغضب الله تبارك وتعالى.

إذا أقبل العبد وأقبل الله. كان هناك التجلى على العبد. هناك ثلاثة أمور:

أولا: إقبال الله وإقبال العبد أو إقبال العبد وإقبال الله.

ثانيا: التجلى.. والتجلى هو عطاء الله لمن أقبل عليه يتجلى الله ســـبحانه وتعالى على عبده.

ثالثا: الغاية الكبرى من إقبال العبد فى الدنيا هى أن يرى الله يوم القيامة.

هذا هو أرقى ما وصل إليه فكر مقبل على الله.

يقول بعض المتصوفة وغيرهم هذه الحقيقة..

ثانيا .. التصوف هو تحلى، وتخلى، وتجلى:

التحلى بما أحل الله وبما يرضيه.

التخلى عما يغضب الله وعما حرمه الله.

التجلى يكون لمن توفر فيه ذلك. لمن تحلى وتخلى أو من تخلى وتحلى وهنا يكون التجلى.

وقضية التجلى لها وقتها إن شاء الله.. ولكننا فى مقدمة الحقيقة الجوهرية التى لا يختلف عليها مسلمان ولا يختلف عليها مؤمنان ولا يختلف عليها عابدان.. ولا يختلف فكران..

هى قضية الإيمان والعمل الصالح.

العمل الصالح: لمن أراد أن يقبل على الله أن يحسن هذا العمل.

ثالثا .. أول مقامات الرقى هو الإحسان مقام المراقبة والمشاهدة:

فأول شيء فى مقامات الرقى هو "الإحسان"، والإحسان هو إحساس مستمر بأنك فى حضرة الله. وهذا فى الإسلام لا نأتى من هنا ولا من هناك. الذى يحدثنا هو الإسلام فى الكتاب والسنة.

سئل النبى ﷺ عن الإيمان وسئل عن الإسلام ثم سئل عن الإحسان.

فقال ﷺ: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

هذا مقام الإحسان.

من من المسلمين وصل إلى هذا المقام؟!..

هذا هو المقام الذى يجتهد فيه المؤمن حتى يجعل نفسه فى حضرة الله وفى حال المراقبة.

فالمؤمن الذى يحس أنه فى حضرة الله. تبنى أعماله على هذه المشاعر. وعلى هذا الإحساس. أن يجيد ما يصنع لأنه يتقرب به إلى الله ويقبل به على الله. فيتخير أفضل العبادة. وأن يؤديها أداء يناسب المقام الذى هو فيه وهو: "أن تعبد الله كأنك تراه".

فهل إذا كنت فى حضرته ونادى عليك لتأتى للصلاة ثم تقاعست عن أداء الصلاة.. فهل أنت فى مقام الإحسان؟!.

لا.. فحاول أن تكون فى مقام الإحسان أى مقام المراقبة أى فى مقام المشاهدة.

هذا هو المقام أو الدرجة التى منها يصل المؤمن إلى الله ومنها يرقى إلى المقامات العلا.

أما من هو بعيد عن درجة الإحسان.. فكيف يعتبر من المقربين؟!.

وكيف يتصور أن الله يقبل عليه بسرعة وهو يقبل عليه ببطء؟!.

أعيد مسألة هامة..

لقد تخلص من أراد القرب.. تخلص من الكفر.. فآمن.

فبعد إيمانه تخلص من المعاصى ولا يفكر فيها.. وطهر نفسه الأمارة بالسوء.

إنما الكلام فيمن آمن ويعمل صالحا.. فعلم أن أول الطريق هو مقام "الإحسان".

أما الذين يقصرون فى الصلاة والزكاة.. فهؤلاء قوم يستبعدون الآن حتى يصلوا إلى درجة "الإحسان".

فالذى وصل إلى درجة الإحسان وصل إلى بداية الطريق وإلى أول الطريق بالتخلى والتحلى لأنه فى مقام ينتظر فيه أن يتجلى الله عليه.

فإذا كان الإنسان فى درجة المراقبة والإحسان ليحسن أداء عمله.. لا ليعمل وإنما هو يعمل. انتقلنا من درجة يعمل إلى درجة أن يحسن ما يعمل.. إنما هو يعمل.. يعمل الصالحات.. أم يعمل السيئات.. يعمل الصالحات أما الذى يعمل السيئات فهذا أمر آخر نسأل أن يتوب علينا وعليكم.

إنما نتكلم فيمن آمن وعمل صالحا.. فنعلمه كيف يعمل صالحا أن يحسن ما يؤديه.. لأنه فى مقام الإحسان.. ومقام الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فليس هناك غير الله يشغل هذا العبد. لا يشغله أحد إلا الله.. ولا يشغله شىء إلا الله.

هو يقبل على الله بحسن العمل. والله يقبل عليه بحسن القبول.

﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ (الأحقاف: ١٦).

فالذى يريد أن يقبل على الله فليجعل نفسه فى مقام الإحسان أى أن يحسن ما يقدمه إلى الله.. لا أن يقدم أى شىء.. وهو غافل فمقام الإحسان يقتضى حضور القلب. فإن لم يحضر قلبك فأنت غافل.

يقتضى حضور القلب. أما أن تصلى صلاة حركية بلا مشاعر فأنت لست فى مقام الإحسان.. وإن أحسنت الظاهر فلتحسن الباطن لأن الباطن هو الذى يسرع بك إلى الله.. إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم.

فالإنسان ظاهر وباطن. ولا يحسن الظاهر إلا بحضور قلبك. لا تضحك على نفسك.

فعندما تبدأ بهذه المقامات مؤمن ابتعد عن الحرام.. يعمل صالحا.. ويعمل صالحا ويحسنه لأنه فى مقام الإحسان أى فى مقام حضرة الله. يعبد

الله كأنه يراه فيحسن العبادة. عند ذلك يعلم أن الله معه.

والاقتداء برسول الله ﷺ يؤدى إلى أن يكون الشاغل هو الله. ولا يشغله أحد فى الاتباع إلا رسول الله ﷺ ولا قدوة له إلا المصطفى ﷺ ميزان ذلك أن المؤمن فى حضرة الله أى فى معيته. يحب ما يحب الله، ويكره ما يكره الله.

من عنده هذا الشعور؟!.

ليس الأمر بكثرة الأعمال ولا بكثرة التسابيح. وإنما هى بحقائق. من فى صدره هذا الميزان؟!.

يحب ما أحب الله ويكره ما يكره الله. لأنه فى مقام الإحسان. ولأنه فى حضرة الله.

ومن كان فى حضرة أحد. كان على حاله وكان على خلقه. فالذى فى حضرة الله. يحب ما أحب الله ويكره ما يكره الله. لأنه فى الحضرة. والذى فى الحضرة تنسج مشاعره بأنوار الله وأنوار رسوله. تنسج بنسيج المقامات فيزداد نسجا كالنول عندما تصنع شيئا. فتتكاثر الخيوط وتخرج شكلا واحدا.

فالمتصوف على حد تعبيرهم هو التقى بتعبير آخر. أو المقرب بتعبير ثان أو الولى بتعبير ثالث أو الصالح بتعبير رابع. المعنى واحد.

﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ (الحجرات: ٧ – ٨).

وفى آخر سورة النحل يقول تبارك وتعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل: ١٢٨).

رابعا .. الفرق فى العمل الصالح بين المؤمن والمحسن:

أحب أن أضرب بعض الأمثلة فى مقامات المحسنين.. من القرآن. مؤمن محسن، ومؤمن آخر محسن.. لكن هذا أرقى من هذا، وهذا أرفع من هـــذا، وهذا أقرب من هذا، هذا فى درجة وهذا فى درجة أخرى.

مقام الصلاة: ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ (المؤمنون: ٩).

يحافظون على الصلاة بشروطها وأركانها إلى غير ذلك. هناك مقام آخر أرقى هو الخشوع. قد تواظب على الصلاة وقد تحافظ عليها ولكن تصيبـــك غفلة. فيأتى الله بحال من أحوال القرب فى فريضة مـــن الفرائــض فــالذى يحافظ على الصلاة ولم يخشع بخلاف من يحافظ ويخشع. هذا مقام، وهـــذا مقام. هذه درجة، وهذه درجة.

﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعو ن ﴾ (المؤمنون: ١، ٢).

ولم يقل الذين هم فى الصلاة، بل وصف الصلاة بحالها، الذين هم فــــى صلاتهم.

وقال العلماء. هذا كمن يقول من أهل اللغة: هذا ظرف لحالها، كالماء فى الكوز، فالكوز ظرف للماء. أى وعاؤه.

فهم فى الصلاة وقد احتوتهم الصلاة وأحاطت بهم وهم فى داخلها فكأنهم والصلاة شئ واحد. إذا رأيت رأيت صلاة لم تر مصليـــن. رأيــت حقيقـــة الصلاة وهم يصلون. حال الصلاة وهم يصلون. مقام الصلاة وهم يصلـــون. نور الصلاة وهم يصلون. فهم والصلاة شئ واحد.

﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعو ن ﴾ (المؤمنون: ١، ٢).

هناك الزكاة، قوم يزكون. هذا شئ جميل: ﴿ومن يوق شح نفسه فــأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر: ٩)، ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ (المؤمنون: ٤).

لم يفعلوا فقط وإنما وصلوا بدرجة الزكاة إلى ان الزكاة أصبحـــت فـــى شعورهم كأن جسمهم يتحرك زكاة لله. ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ (المائدة: ٥٥).

لم يتحمل أن يترك السائل قبل أن ينتهى من الصلاة، لم يتحمل أن يـؤدى الصدقة بعد انتهائه من الصلاة. بل أخرج من جيبه ما يريد وهو فى صـــلاة النافلة. فقدمها للسائل، فوصف الله هذه اليد وهذا المقام.

عمل هذا يساوى من يؤدى الزكاة فى أى وقت؟ على حســـب مزاجـــه! وإنما أدى الزكاة على حسب مزاج الفقير. وهذا مقام، وهذا مقام.

* والذين هم للزكاة فاعلون .. هذا مقام.
* والذين يؤدون الزكاة وهم راكعون.. هذا مقام أخر.

هذا على مزاجك.. تؤدى الزكاة فى الصباح، فى الظهر، فى العصر، فى المغرب أو بالليل.

أما إذا جاء السائل وأنت تصلى وأنت فى عبادة، فقد ترجمت عن حقيقـــة وجودك فى حضرة الله، فإن جاء سائل من أجل الله، كانت الصلاة راحة لـــه لله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمـــون الصـــلاة ويؤتـــون الزكاة وهم راكعون﴾ (المائدة: ٥٥).

هناك مزكى يزكى فى أى وقت، ولكن إيمان وعمل صالح، ولكن هنـــاك من يعمل هذا العمل الصالح أرقى من غيره، فهل يستوى هذا مع هذا؟. ﴿هم درجات عند الله﴾ (آل عمران: ١٦٣).

درجات بين الكفر والإيمان أم درجات فى الأعمال الصالحة؟ درجات فى الأعمال الصالحة.

إليكم مثالا آخر.. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان

غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكـــم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾. (نوح: ١٠ – ١٢).

استغفار من أجل تفريج الكروب والرزق. من لزم الاستغفار جعل الله لــه من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتســب. هــذا استغفار من أجل الرزق. أو من أجل تفريج الكروب أو من أجل الذنب.

هناك استغفار أرقى لصاحبه من هذا، الاستغفار واحد ولكـــن درجــات المستغفرين تختلف. الاستغفار واحد ولكن المستغفر يختلف من واحد لآخر.

فهناك آية مَن آيات الله تبارك وتعالى فى مستغفرين آخرين مـــن نــوع آخر، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنـا وقنا عذاب النار﴾ (آل عمران: ١٦).

من هؤلاء؟..

هل الذين يطلبون رزقا أو يستغفرون من المعاصى؟!.. لا.. إنما هــؤلاء الذين يصفهم الله وصفا خاصا بعد هذا الكلام العظيم: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ (آل عمران: ١٧).

فهؤلاء الذين يستغفرون بالأسحار هم الصابرون، الصادقون، القــانتون، المنفقون ولكنهم يستغفرون بالأسحار استغفار رقى من ذنوب قد تحجبهم عن ربهم. وهى ليست بالمعاصى الظاهرة، وليست بالأفعال التــى تغضـــب الله. ولكنهم يستغفرون رقيا إلى جنابه الأعلى.

يستغفرون من خاطر أو من كلمة. أو من قول ربما نسوه ويكــون ذنبــا إنهم يطهرون أنفسهم من أبعاد بعيدة خشية أن تخالط قلوبهم.

يقول الله سبحانه وتعالى فى هذا المعنى وأكرره: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصــــادقين والقــانتين

والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ (آل عمران: ١٦ - ١٧).

فمن يستغفر بالأسحار ليرقى إلى الله؟ من؟.

من آمن وعمل صالحا وزكى وصام وحج وأنفق وصبر وهو قــانت لله. وهو صادق فى إيمانه، صادق فى أعماله، صادق فى وعده، صــادق فــى حاله. من؟ هذا الإنسان؟ أليس هو إنسانا مؤمنا ؟ هل تســاويه بمــن يــترك الصلاة على الصلاة؟!. هل تساويه بمن هو غافل عن صلاة؟.

لا.. إنه على رقى خاص. يرقى وهو مؤمن. وأنت مؤمن ولكن فــرق. وهو بهذا الحال وأنت توصف بالإيمان ولكن لا تزكى أو لا تصوم. أو أنــت فى غيبة وهكذا.. ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنـوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ (الجاثية: ٢١).

خامسا .. الفرق فى الإيمان القلبى بين المؤمن والمحسن:

انتقل إلى أمر ثالث فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿إنما المؤمنون الذيــن إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلــى ربــهم يتوكلون﴾ (الأنفال: ٢).

الذى يزداد إيمانا أيكون أرقى أم أحط؟..

عندما يتلى القرآن.. يدرك أهل الحضرة والمشاهدة الذين قلنــا إن هــذا حالهم، يدرك أن الله يكلمه ويخاطبه ليزكيه ويطهره مما هو فيه.

إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبــهم. أى أحســت بــالوجل والخوف من عاقبة سوء فعلهم فينسبون الشر إلى أنفسهم.

وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلــون. فــهو يقــرأ القرآن وإذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقــوا ربكــم إن زلزلــة الساعة شئ عظيم﴾ (الحج: ١)، ذكر الآخرة وماذا صنع لها وقدم. وكيــف

سيكون مصيره؟. وإلى أين على الميزان وعلى الصـــراط؟ فـيزداد وجـلا وخوفا وإشفاقا على نفسه.

كما كان ﷺ عندما تلى عليه قول الله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمـة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ (النساء: ٤١).

فبكى ﷺ بكاء شديدا فقال: (حسبك يا ابن مسعود حسبك يا ابن مسعود).. وكان فى حال. هذا الحال قد انتقل به عندما استمع إلى ذكر الله وكـلام الله، فكأنه يوم القيامة. وفى الموقف يسأله الله سبحانه وتعالى، ويشهده على مـا جاء فى القرآن الكريم، وقيل لرسول الله ﷺ وقد ابيض فيه بعـض شـعر. فقيل: يا رسول الله لقد ظهر الشيب فيك، أو ابيضت لحيتك، وفيه شـعرات بيض، فقال ﷺ: (شيبتنى هود وأخواتها). كونه يشيب لما فى صـدره مـن مشاعر وخوف ووجل فأثر فى جلده وفى البويصلة التى يخرج منها الشـعر فضعفت من تأثير ما فى باطنه على ظاهره فاشتد حاله.

وعندما نقرأ آية من آيات الله مثلا:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقـوا الله لعلكـم تفلحون﴾ (آل عمران: ١٣٠).

هو يخاطب بالأصل. بالإيمان. هل أنت مؤمن؟ نعم.

هل أنت مطيع؟ نعم. هل تتخلى عما يغضبنى؟ نعم.

كيف تتعامل بالربا؟ يا من تتقربون إلـى الله بالمظـاهر دون البواطـن والفعل.

فهل الذين يأكلون الربا ويتعاملون به ويحاسبون ويشهدون. هل هـؤلاء مقربون إلى الله؟ لا. ليسوا مقربين إلى الله.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحـق

من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ (محمد: ٢-٣).

فيخاطبك. هل أنت ممن يتبع الباطل أم أنت ممن يتبع الحق؟ فيخرج المؤمن من كل تلاوة ومن كل استماع إلى حال جديد ومقام جديد.

فإذا كان يأكل الربا. لا يأكله حتى يكون فى حضرة الله.

وإذا كان يتبع أهل الباطل. لا يتبع أهل الباطل.

وفى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ﴾ (الحجرات: ١١).

فالذى يتقرب إلى الله يتخلق بأخلاق الله. فمن أسمائه "الكريم" ومن أسمائه "الرحمن" "الرحيم" ومن أسمائه "الرؤوف". إلى غير ذلك.

فهل أنت تسخر من زوجك؟ والزوجة تسخر من زوجها؟

هل أنت تسخر من إخوانك؟ لقلة مال أو لقلة جاه؟ هل تسخر.

يا من تتقرب إلى الله بخلقة خلقها الله؟ تسخر من أى شىء.

إذن أنت متكبر. والمتكبر لا يرقى إلى الله.

إن الله عندما يكلمك في كتابه يرقيك بكلامه. فهؤلاء قوم أحسوا وهم فى حضرة الله. أحسوا بكلام الله.

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (الأنفال: ٢).

آية أخرى.. قوم قلوبهم فى وجل. وقوم ازدادوا إحساسا فانتقل ذلك إلى أجسامهم وإلى جلودهم. فجلدك يحس بالقرآن كما أحس قلبك. فهذا أحس قلبه. وهذا أحس كله وفرق بين هذا. وبين هذا. هذا أعلى درجة من هذا.

وهذا أعلى مقاما وقربة يقول الله تبارك وتعالى:

﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلـــود الذيــن يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ (الزمر: ٢٣).

وكأن القرآن لا يخاطب القلب فقط. وإنما يخاطب العين وهى جارحـــة. يخاطبها بنور القرآن فتقشعر إن كان فيها ظلمة معصية. خوفا من الله تعالى. والقرآن يغشى السمع. وهل سمع غيبة أو نميمة أو كذبا أو لغـــوا أو كلمـــة سوء أو فسق أو فحش.

فالآذان تقشعر. واليد تقشعر. والبطن يقشعر وكل الجسم عندمـــا يتلـــى القرآن. كأن القرآن يدخل كله فى مسام هذه البشرية. نورا يغير الظلمة بمـــا أنزل الله من كلامه ونوره وبيانه.

﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلـــود الذيــن يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ (الزمر: ٢٣).

فهذه الأحاسيس هل يستوى معها إنسان يسمع القرآن وهـــو يكـــذب ولا يتحرز من كذبه؟ هل هذا من أهل القرب؟ ومن أهل الحقيقة؟ الإنسان يشـــنف سمعه بنور الله وبذكره. فرق بينه وبين سمع يتلذذ بغيبـــة النـــاس. ويتلـــذذ بالكلام الفاحش.

هل هذا سمع يستوى مع هذا السمع؟

هل هذا مقرب إلى الله، وهل هذا سمع المتصوف؟

وهل هذا سمع متخلص من الأغيار؟ وهل هذا سمع من يريد أن يقـــذف فيه نور الله؟.. لا.. وكلا. فرق بين عين وعين. وسمع وسمع. وفرق بيـــن لسان ولسان. وبطن وبطن. وجلد وجلد. ومشى ومشى. وقدم وقدم. ويد ويد.

هذه يحس بها الصالحون. ويحس بها المقربون.

فكلما تقرب العبد إلى الله. كلما أدرك أن كلمة واحدة أو نظـــرة واحــدة تسقطه إلى أسفل السافلين. فيحافظ على الجوهرة التى من الله عليه بها.

هو نور يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. فلا نقول لكل من جلــس فــى حلقة ذكر هو من المتصوفة ولا من المقربين. ولا نقول لكل من تمايل نكـوا إنه من الواصلين. ولا نقول لمن تمشيخ على قوم هو فى أعلى عليين.

لا نحكم على البشر بهذه الأحكام فنحن لا ندريها ولا نعلمها ولا نصـــل إليها وإنما يعلمها علام الغيوب سبحانه وتعالى.

إن التصوف لا بد من الكلام فيه. ولا بد من معرفة كلام هؤلاء الذيـــن نهجوا هذا النهج. وهو علم بين المسلمين ولكننـــى أردت أن أقــدم الشـــىء المتفق عليه وعندما نذكر كلامهم. هل فى كلامهم ما يوافق الكتاب والســنة؟ وهل يتقربون إلى الله كما قلنا؟

إذا كان الأمر كذلك فلا خلاف. أما إن كان هناك ما هو دخيل على هــذه القاعدة فسنبينه. سنبينه أمرا أمرا. وكل أمر وكل شىء ليس على أمرنا فــهو رد. وكل شرط ليس على أمرنا فهو باطل وَإن كان مائة شرط.

فإن اشرط المشايخ. على مريديهم فنرى الشروط. هـــل يوافــق عليــها الكتاب والسنة أو لا؟

فإن كان هناك شرط يقره الإسلام سنقول به. وإن كان هنـــاك شـــرط لا يقره الإسلام. سوف يرد على أصحابه. ومن هنا إلى أن ننتــهى مـــن هــذه القضية. أرجو الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعـون أحسنه وأن نعاهد الله فى هذه الليلة أن نراجع أنفسنا. هل نحن من المؤمنيــن حقا؟ أو من العاملين صدقا؟ أو من المقربين يقينا؟ أم نحن فـــى بعــد فــى القرب. ونحن فى معصية اختلطت بالطاعة أم هناك إيمان ضعيف؟

فالأمر يحتاج إلى مراقبة النفس وإلى عرضها على ما قلنـــــا. لا أقــول قضية التصوف حتى ينتصر بعضكم على بعض فى شهوة قول. ولا أقـــول هذه القضية زعامة بانتصار كلمة على كلمة.

وإنما نذكر العلم للعلم. ولا يذكر العلم للعلم إلا للعمل به. إلا لتقــوى الله. فلنحافظ على هذا المعنى ولنكن أسوة حسنة لإخواننا. وأن نكون على عبـــادة خالصة لله. وأن نبعد كل البعد عن البعد. لأن البعد تخلـــــو منـــه الرحمـــة، والقرب فيه كل الرحمات.

التصوف وطريق الوصول إلى الله تعالى

أن التصوف بمعناه المتفق عليه هو التخلى والتحلى والتجلى.

والتخلى هو التخلى عما حرم الله. والتحلى هو التحلى بمـــا أحـــل الله أو بمعنى آخر التحلى بكل ما يرضيه والتخلى عن كل ما يغضبه. بهذا التخلـــى وبهذا التحلى يكون التجلى. والتجلى هو ما يكرم به العبد نتيجة مرضـــاة الله تبارك وتعالى.

وعرفنا أيضا أن المؤمن الذى آمن بالله سبحانه وتعـــالى وتحقـــق منـــه الإيمان. وعمل صالحا فأحسن عمله وأتقنه ثم ترقى مـــن هـــذه الأصـــول. فالترقى لا يكون من كافر ولا يكون من عاص ولا يكون من غير محســـن. فلا بد أن يحسن المحسن سبيل الوصول. فالتصوف فى جوهره يحقق معنـــى الوصول إلى الله. وهذا ما نتناوله فيما هو آت.

أولا: طريق الله بالله ووسيلته الاقتداء برسول الله والمجـــاهدة ليست بالهوى.

الوصول إلى الله لا يعلمه إلا الله. فلا يستطيع أحد أن يعرفك بالله إلا الله. ونحن لا نستطيع أن نتلقى هذا. فالله تعالى لا يكلم البشر حتى يعـــرف كـــل واحد على حدة. وإنما يعرفهم به عن طريق الخبراء الذين عرفوه. ﴿الرحمن فاسأل به خبيرا﴾ (الفرقان: ٥٩).

ونجد أن الله تبارك وتعالى جعل الوصول إليه عن طريق من وصل إليه. فالذى وصل إلى الطريق يوصل غيره. لأن الوصول إليه بالهوى. لا يمكـــن فلا بد وأن ينتزع هذا الهوى تماما. وأن يكون المريد للوصول مخلصا فـــى

غايته متبعا من عصم. فلا يمكن لمن يريد الوصول بهواه. أن يتبع من هـو على هوى. فإذا اشترك الهوى والهوى. اشتد أزر الشيطان. لابد من اتبـاع من لا هوى عنده. فهذا يوصل هذا. وهذا الأصل الجوهرى فى معرفتنا بالله. فى معرفتنا بالله عقيدة. وفى معرفة الوصول إليه أى إلى مرضاته.

فنحن لا نقصد من هذا المعنى إلا أن تصفو نفوسنا إلى هذا الهدف الأكبر فهو طريق العارفين بالله. طريق الواصلين إليه.

وهذا هو الخلاص والتخلص من النفس. فالذى يتبع لا يكون عنده هـوى كما قلنا. فقد يقف هواه عقبة أمام معرفة ربه. فلا بد من التخلص من هـذا الهوى.

لا إرادة إلا إرادة الله. فلا إرادة لك. فإرادتك خاضعة لإرادة الله فـأول شيء تلتزم به هو أن تجاهد هذه النفس. فنحن فى صراع. صراع بين الهوى (وهو هوى النفس) وبين الوصول إلى الله. وهوى النفس لا يوصل الإنسـان إلى أى غاية. هواك. شهواتك. ملذاتك. هواك فيما لا يرضيه. أما إذا كـان هواك فيما يرضيه. فنعم الوصول. فأنت لاتصل بنفسك وإنما تصل بـه. ولا تصل به مباشرة وإنما تصل عن طريق من وصل إليه.

وعندما أبدأ هذا فى المجاهدة أذكر قول الله سبحانه وتعـالى: ﴿والذيـن جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت: ٦٩).

أى سبل معرفتنا. وسبل قربنا. وسبل حبنا. وإن الله لمع المحسنين الذيـن يحسنون الجهاد ويحسنون المجاهدة (والذين جاهدوا فينـا لنهدينـهم سـبلنا) فالسبل لا يهتدى إليها مريد المعرفة إلا بمجاهدة نفسه.

وإن الله لمع المحسنين فبمجرد الرغبة فـى الوصـول إليـه وبمجـرد المجاهدة كانت المعية. فيعينك الله بمعيته على هواك. ويعينك على شيطانك.

ويعينك على نفسك.

وعندما أجاهد نفسى أى أصارعها. والمجاهد عدو. وأنا أعلم أن نفسى هى عدوة لى. وأن الشيطان الذى يستخدم هذه النفس هو أيضا عدو لى. فلا بد من التخلص منهما.

فأول شيء فى هذا الأمر هو المجاهدة. مجاهدة النفس ومجاهدة الشيطان. وعندما أتخلص بهذه المجاهدة من نفسى ومن شيطانى. فقد تحرر الهوى وأصبح خالصا لمعرفة الله. خلص من دخان المعاصى. ومن ظلمات الخبائث فاستعد لكى يتبع.

فالمجاهدة هي سيطرة على النفس لاتباع قدوة حسنة. ومن هنا لا أكون تابعا للهوى. فالمجاهدة تخلصنى من اتباع نفسى إلى اتباع القدوة العظيمة التى هى خبرة الوصول.

أقول مرة أخرى. المجاهدة. بانتصارى فيها وبها. تخلصت من النفس والشيطان فتخلصت من الهوى. من هوى النفس. ومن هوى الشيطان. ثم اتبعت الخبير الذى يوصلنى. فأنا متبع له. تابع له. وهو إمامى وقائدى إلى معرفة الحق تبارك وتعالى.

بغير هذا لا أتمكن أن أصل بنفسى. لا يمكن لأن النفس لا يمكن أن توصلك بهذه الطريقة فهى مسيطرة عليك وأنت لست مهيمنا عليها فكيف تصل بهواك؟ لا يمكن. فالهوى هو المتبع.

وكيف تصل بالنفس؟ النفس أمارة.

وكيف تصل بالشيطان؟ الشيطان عدو.

إذن لا أمان مطلقا فى الوصول بهذه السبل التى لا توصل بل هى تبعد وتبعد وتبعد.

فغاية الوصول هو الله. أجاهد نفسى حتى أكون تابعا لمن يوصلنى إلـــى الله. وقد جمع الله هذا المعنى فى قوله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (الأحزاب: ٢١).

- (لقد) وهى للتحقيق.
- و(كان) لتحقيق الأمر.

وكلمة (فى رسول الله) الذى تقتدون به هو رسول الله. أى تلقى رســالته من الله فلم يكن فى هذا التلقى هوى. فأنتم تتبعون من لا هوى له.

فاتباعكم لمن لا هوى له يحتاج منكم أن تتخلصوا من هواكـــم حتـــى لا تؤخركم أنفسكم. وحتى لا تبعدكم عن حقيقة المعرفة والوصول الحق إلى الله تبارك وتعالى.

واقرأ الآية مرة أخرى.

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ (الأحزاب: ٢١).

أسوة حسنة. فلا سيئة فى قول. ولا سيئة فى فعل. فهو أسوة حسنة فـــى القول والفعل. وحسن القول. وحسن الفعل هما السببان العظيمان فى مجـاهدة النفس وفى مجاهدة الهوى.

فأنت تحاسب نفسك وتجاهد نفسك فى القول.

هل تقول قولا يرضى هواك. أم تقول قولا يرضى الله؟

أنت تفعل..

هل تفعل شيئا يرضى هواك.. أم تفعل شيئا يرضى الله؟

فأنت بين الحسن والقبيح.

فالقبيح لا يوصل.. والحسن هو الذى يوصل.

وأنا لا أعرف الحسن من تلقاء نفسي. وإنما أعرف الحسن من أهله فـــي القول والفعل.

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله﴾ (الأحزاب: ٢١).

﴿لمن كان يرجو الله﴾.. ولم يقل لمن كان يرجو الإسلام. لأن الإسلام سبب.

ولم يقل لمن كان يرجو الإيمان. لأن الإيمان سبب.

أو لمن كان يرجو الآخرة. فهل تصل إلى نعيم الآخرة إلا بالوصول إليه؟

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله﴾ (الأحزاب: ٢١).

ولم يقل لمن كان يرجو الرحمن. فجاء باسم الذات حتى يحقـــق صفـــاء الغاية.

فلم يقل الرحمن. فربما تريد الوصول إلى رحمته لا إلى ذاته فجاء باســم الذات.

ولم يقل لمن كان يرجو الجبار. ولا الكريم ولا الرشيد. فجاء باسم الـذات لأن الله هو المعبود بحق. فأنت تريد المعبود بحق. لا لغاية وإنما لتصل إليه. إليه. إليه. إلى ذاته. بأسباب قد شرعها لك وجعلها حركة وسكونا فى أحـــب الخلق الواصلين إليه، فى سيدنا ومولانا محمد . يقول الحبيب المصطفى ﷺ.

"والذى نفسي بيده لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".

نبدأ معا. أن النبى ﷺ تلقى الرسالة التى توصله إلى الله. ونحن نريـــد أن نص [illegible] علا يمكن أن يصل عبد إلى الله بهواه. لأن هواه يبتدع الفتـــن والشهوات. إنما لا يتبع إلا رسول الله ﷺ.

وعندما أجاهد نفسي. أجاهدها لتحقيق الاتباع ولتصفية النفس من الخلــط والوهم الذى يبعدنى عن الاتباع الصحيح.

فلا هوى وإنما هو اتباع. فإذا اعترض الاتباع مع الهوى فما زال هنـــاك

مرض.. فأغلب الاتباع على الهوى لأننى أريد الله.

وأضرب مثالا فى معصية يفعلها الناس (هذا على سبيل المثال لأن الكلام فى هذه القضية مستمر).

رجل يلبس الذهب. ويصلى ويصوم ويزكى ويحج وهو صادق وفيه خير كثير. ولكن هناك جزئية فى هواه تشير إلى وقفة.

هل لهذا أن يصل مع إصراره على لبس الذهب؟. لا. لابد وأن يتجرد من الهوى تماما لأن الذى يريد أن يصل إلى أحد يصل إليه بكل مرضاته. فلا يرضيه فى كلية ويغضبه فى جزئية. ولو فى شعيرة يسيرة. فهذا يعطله ولا يوصله.

"والذى نفسى بيده لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".

فالذى تخلص من الكفر واتبع الإيمان. وتخلص من هوى النفس ومن المعاصى فكان مطيعا متبعا. هذا خير كثير.

يقول الله تبارك وتعالى فى سؤال يسأل فيه من يرغب فى الوصول إلى الله. هل وصولك إلى الله حبا فيه أو غير ذلك؟

هل تحب أن تصل إلى من تكره أو تريد أن تصل إلى من تحب؟ إلى من تحب بالطبع. فأنا أريد أن أصل إلى الله بحبى له. فالله سبحانه وتعالى عندما يرى ذلك من عبده. يبادله نفس الحب.

فأنا تخلصت من حبى للأشياء التى تغضبه إلى الأشياء التى ترضيه.

ومن الأشياء التى يكرهها إلى الأشياء التى يحبها. هذه هى المجاهدة. وهذا هو الاتباع.

عندنا أجاهد نفسى فى أننى أحب الخمر. فتخلصت منها لأننى أعلم فى نفس الوقت أن الله يكره هذه الخمر. فتركته سعيا إلى حبه. وسعيا إلى

مرضاته. فكان ميزان الحب هو محرر الوصول. أى أن أعلم الأشياء التى يحبها والأشياء التى يكرهها. ومن هنا أجاهد نفسى. ولا يمكن أن أجاهد نفسى بغير علم.

لا بد وأن أعلم الأشياء التى بها أصل لأن الله يحبها. والأشياء التى يكرهها الله تعالى حتى أدعها تماما. وإن عارضتنى نفسى عارضتها. وإن جاهدتنى نفسى. جاهدتها. وإن قاتلتنى نفسى قاتلتها. وإن زاحمتنى نفسى. زاحمتها. حتى أكون أميرا عليها وحتى أسخرها مطية لطاعة الله تعالى وللوصول إليه.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ (آل عمران: ٣١).

﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ حقيقة بلا إدعاء. يقينا بلا ريب. صدقا بلا كذب. إقداما بلا تراخ. قوة بلا ضعف.

﴿فاتبعونى﴾ كلمة واحدة ﴿فاتبعونى يحببكم الله﴾ .. جواب الشرط وفعل الشرط. وكما يقول أهل اللغة (إن تجزم فعلين فعل الشرط وجواب الشرط).

﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ هذه واقعة فى فعل الشرط. جواب الشرط ﴿فاتبعونى﴾.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى﴾ .. "الفاء" واقعة فى جواب الشرط ثم قال: ﴿يحببكم الله﴾ هذا جواب الأمر فى قوله: ﴿اتبعونى﴾.

فليس هناك محاور تحيرنا. وليس هناك أوهام تشتتنا. ما يجمع عليه ومالا يختلف عليه اثنان لمن أراد الوصول. أن يخالف هواه. وأن يتبع النبى ﷺ. فاتباعه للنبى ﷺ قولا وفعلا هو الذى يوصل العبد إلى الله تبارك وتعالى من أقرب الطرق ومن أيسرها ومن أجملها ومن أخفها يسرا على النفس.

الشريعة أولا. الشريعة أولا. الشريعة أولا.

يقول الله تبارك وتعالى فى هذه القواعد الأصلية الأصولية:

﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦).

فهو الداعى إلى الله. والداعى إلى الله دعا إلى الله بما علمه الله.

بمعنى.. إن أردت أن تصل إلى فها هى أسباب الوصول.

إن أردت أن تصل إلى فإن فى الوصول شريعتى. شريعتى. شريعتى فلا يستطيع واحد من الناس أن يجمع كلاما أو يؤلف عبارات أو أن يدعى شيئا يوصل الناس إلى الله من غير هذا الطريق. يرد.. لا يقبل.

﴿وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾ (الأحزاب: ٤٦).

فالذى صنع هذا السراج هو الله تبارك وتعالى. والسراج من شأنه أن ينير. فأنت تستنير من سراج صنعه الله لأنك لا تصل إلى الله بظلمات النفس وإنما الوصول إلى الله بنوره. والوصول إلى الله ونوره لا يكون إلا من مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ.

﴿وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾ (الأحزاب: ٤٦).

فالذى يتبع يعاهد قبل الاتباع وهذا ما يقول فيه القوم بأنه "العهد" كيف آخذ عهدا بغير بصيرة. وإنما أصل إلى حقيقة العهد والمبايعة فأنا أبايع من؟.. من أجل من؟.

أبايع الرسول من أجل الله. أبايعه. وأعاهده. وأضع يدى فى يده حتى يتم العهد من أجل الله. فالوصول إلى الله بعهد تلتزم به. سواء كان قولا أو فعلا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا * إن الذين يبايعونك

إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾ (الفتح: ٨-١٠).

في حقيقة المبايعة. أقول أنا لا هوى لي في هذه المبايعة. أقول. لا أخالف في هذه المبايعة. أقول. أجاهد نفسي في تحقيق هذه المبايعة لأنها عهد وميثاق بيني وبين رسول الله ﷺ. والاتباع لا يكون بهوى الناس وإنما يكون لخبير وصلني إلى الله يعرفه. وعلمت أن الخبير الذي يوصل إلى الله تبارك وتعالى وعرفه وهو أتقى الناس وأكملهم هو مولانا رسول الله ﷺ فالتزمت أن أكون تابعا له واتباعه هو اتباع الله.

إن بعض الواهين اعتبروا أن شيوخهم توصلهم إلى الله لبركاتهم (وهذه قضية أنكرها في حينها وما مدى صحة هذا الأمر) واكتفوا بهذا. نحن في ذيل المشايخ. نحن في ذيل الصالحين. دون عمل! وهل للصالحين نيل؟! حتى هذا التعبير تعبير سخيف لا يوصف به إلا الحيوان.

قيل أو يقال بحسن نية. إن الوصول إلى الله لا يعرف الجهالة وإنما يعرف دقة الأمر والنهي. أن نعلم هذا يوصل وهذا لا يوصل هذا يعرفك بالله. وهذا يبعدك عن الله ليس هناك أمر ثالث. واكتفى البعض ببعض التسبيحات ككل. وهذه التسبيحات بألف أو بمائة ألف. يقال في بعض الطرق هي الدائرة الأولى أو هي التحضير. ولا مانع من الذكر ولكن سلوك هؤلاء لا يعتبر سلوكا يعرف الناس بالله ولا يعتبر سلوكا يوصل إلى الله. فبعد هذه التسبيحات نجد أن الواهم أنه يصل. يصل بذكر ثم يعصي الله في أمور كثيرة. فلا مانع أن يشرب الدخان في وسط مريديه أو إخوانه. ولا مانع أن يفعل غير ذلك. وإن قيل لبعضهم. كيف يشرب الشيخ أو يشرب المريد؟ قالوا: إن الأنوار قد زادت فيريد أن يطفئها.

إن الله يصف رسوله "سراجا منيرا" فالأولى بأن يقلل من الأنوار الزائـدة هو الواصل. ولكن هل كان ﷺ يضحك على العباد؟ وهل يسخف عقولهم؟

إن الحق حق. والباطل باطل.

أردت أن أضع هذه الكلمة بين أيديكم وإن كان وقتها ليـس الآن وإنمـا لأحقق قاعدة كما حققها الإسلام.

(أحققها لكم. أنا لا أحقق قواعد وإنما علي قدر الاستطاعة وطـاقتى أن أكون متبعا لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ).

أول شيء هى الأصول. القواعد. قواعد الإسلام. بغير قواعد الإسلام لا نصل.

كمثال: المحرمات معروفة. إنما تختار طريقة الوصول.

يقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى كما رواه سيدنا رسـول الله ﷺ: "من عادى لى وليا فقد اذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بـأفضل أو بأحب مما افترضته عليه".

فأنا لا أستطيع أن أؤلف شيئا غير هذا. هذا الذى يوصلنى وأجاهد نفسـى أن أحقق هذا.

﴿وما تقرب إلى عبدى بأفضل مما افترضته عليه﴾

فنختار مثالا كالصلاة.

الصلاة أصل وركن من أركان الإسلام. من جاهد نفسه فى الصلاة حتـى تكون أحب شيئا يقدم إلى الله؟!.

هذا هو السبيل العملى.. كلنا إن شاء الله نصلى. من يصلى الصلاة فـى وقتها؟!.. من؟!.

فنحقق الصلاة فى وقتها. نجاهد النوم ونجاهد الملذات نجاهد الهوى ففـى كل فعل مجاهدة فى الأمر والنهى.

من يصلى فى المسجد؟. كلنا يصلى فى المسجد.

من يؤذن عليه الأذان وهو فى المسجد؟ كلنا يؤذن عليه الأذان وهو فـى المسجد.من يدخل المسجد مستحضرا حقيقة الضيافة والاستقبال من الله؟ مـن يفعل ذلك؟ من يتأدب فى الدخول والجلوس والحركـة والسـكون؟ وهنـاك حديث: "إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم مسـرعون، إذا دخلتـم الصـلاة فادخلوها وعليكم السكينة والوقار".

من يجلس بأدب؟.ومن يحسن الصلاة؟ ومن يختم الصلاة؟ ومن ينتظـر الصلاة إلى الصلاة؟!. (هذا فى الصلاة فقط) هذه تحتاج إلى مجاهدة. وعندما نرجع إلى الاتباع نجد أن رسول الله ﷺ كان على هذا الخلق وعلـى هـذه المجاهدة إلى غير ذلك.

أردت أن أضرب مثالا حتى إذا تعلمتم حقيقـة التصـوف. لا تتعلمـوا الحقيقة وأنتم بعيدون عن سلوكها، لا نكون على قول أجوف وإنما نكون على إرادة سباقة لمعرفة هذا الأمر العظيم.

﴿وما تقرب إلى عبدى بأفضل مما افترضته عليـه، ولا يـزال عبـدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الـذى يسـمع بـه، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئـن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه﴾.

ثانيا: أمثلة فى ممارسة الأركان الخمسة للمتصوف ولمدعـى التصوف:

الأركان الخمسة للإسلام هى:

- أشهد ألا إله إلا الله. هذه هى جزء من ركن من أركان الإسلام. هـذه الكلمة لها نافلة وهو الذكر. ولا إله إلا الله الأصل والنافلة الذكر. فالذكر نافلة

وليس أصلا فيكتفى الناس بالنافلة ويتركون الأصول. فيذكـرون الله طـوال الليل ولا يصلون الفجر حاضرا تصرف مناقض لتعاليم الإسلام.

– وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. هذه أصل. ونافلتها كـثرة الصـلاة والتسليم على نبينا وحبيبنا ﷺ.

– إقام الصلاة. الصلاة ركن. الاجتهاد فى تحقيق الركـن يحتـاج إلـى مجاهدة. النوافل التى تزداد بها قربا إلى الله كصلاة سنة الفجـر والضحـى وسنة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والنوافل.

– ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمـودا﴾ (الإسراء: ٧٩).

– فيكون من سنن النهار إلى سنن العشاء إلى التهجد بالليل.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ (السجدة: ١٦).

هذا شيء فى حركة الواصل الذى أرقه الحال. تتجافى جنوبهم عـن المضاجع فلا يتلذذون بنوم خشية أن يفوتهم الوقت.

أما المتصوفة المدعون الذين ينامون الليالى والأيام لمجـرد أن يمسـك بمسبحة طويلة أو قصيرة!. لا. لا. التصوف ممارسة وحقيقة ومجاهدة.

وكل أدرى بنفسه. هل أنت تريد الوصول؟ من الذين تتجافى جنوبـهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا؟ خوفا من عقابه وطمعا فى رحمته؟ هل أنت الخائف على مخدعك؟ أنت قد تركت الصلاة فى النهار. لا يتـأتى هذا بل لقد انتقلت من كمال الأداء إلى كمال القرب فى الليل. فلا تستيقظ ليلا وأنت مقصر نهارا. تصلى المغرب مع العشاء بغـير عـذر. ولا تصلـى حاضرا. ولا تصلى الظهر حاضرا. فأنت تلعب ولا تبالى.

هل أنت الذى يتجافى جنبك عن مضجعك؟ هل أنت الذى تريـد أن

تصل إلى المقام المحمود؟ كلا. وإنما الذى وصل من الأصول إلى النافلة. ومن الأركان إلى النافلة أى أدى الأصول بتمامها ثم انتقل شوقا إلى نفس العبادة يكررها فى نوافل ونوافل ونوافل.

الزكاة. يؤدى الزكاة ويتصدق.

الصوم. يصوم رمضان ويصوم ثلاثة أيام فى أول الشهر. يصوم ثلاثة أيام هلالية ثم يصوم أيام التشريق وسط الشهر. ثم يصوم أيام المحاق فى آخر الشهر أى يصوم السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين أو الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر. أو الأول والثانى والثالث.

من يفعل ذلك؟!.

ليس الأمر بالادعاء وإنما هى مقدمات تعرض على أسماعكم حتى لا ننظر إلى المدعين نظرة تشغلنا عن حقيقة التصوف فالمظهر شيء والمخبر شيء آخر.

- الحج. وما يلتزم به المسلم والنوافل التى تأتى بعد ذلك.

ثالثا: أخلاقيات مع أهل القربة والصحبة مع الله تعالى:

(ولا يزال عبدى يتقرب إلى) يتقرب إلى: تذوقوا هذا المعنى.

"يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه".

إذن هناك صحبة قد تمت. فأنت ببعدك عن هواك وبتخلصك منه وباتباعك لمولانا رسول الله ﷺ فيما جاء به من أمر أو نهى. وقد عاهدته على ذلك فى عهدك أى عاهدت الكتاب والسنة بعده. (بعد انتقاله). ثم اتخذت السبيل مجاهدا نفسك بقواعد شرعك. فأصبح هناك معنى جديد وهو صحبتك

لله. فصحبتك لله إن أحسست بها. فأنت فى أول الطريــق. صحبتــك لله. إن أحسست بها. وشعرت بها وخالطت وجدانك فــأنت فــى أول الطريــق لأن الطريق إليه لا يبدأ بفعل دون مشاعر. فقد وصلك عملك إلـــى التلـــذذ بمـــا تصنع. والتلذذ بما تصنع هو التلذذ بالطاعة. أنت صـــاحب لله. إن تلـــذذت بالطاعة فأنت عارف بالله.

إذن ستبدأ الطريق بفعلك وإحساسك. بقلبك وقالبك. أما بادعـــاء الاتبـــاع وادعاء القول. وادعاء الفعل. دون أن يكون هو فيك وأنت مســـتغرق فيمـــا تتقرب به إليه فابدأ من جديد. وحاول من جديد فلا تتوهم.

فمعرفة الله شيء عظيم. وأمر جلل. وغاية من أسمى الغايات. تجعلـــك صاحبا لله. فأنت من أهله. وأهله هم خاصته وأولياؤه وأحباؤه.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ (الفرقان: ٦٣).

لأنهم فى حضرة ربهم فلا نرى فيهم كبرا ولا تكبرا. بل نرى النفوس المتواضعة تخفض الجناح لأنهم رحماء فى الأرض تخلقـــوا بخلـــق الله. الله رحمن رحيم تأدبوا بأدب الرحمة.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجـاهلون قالوا سلاما﴾ (الفرقان: ٦٣).

– قالوا سلاما. أى نحن فى سلام مع ربنا. لا يغيره جهل الجـــاهلين ولا حماقة الحمقى. لأنهم لا يدرون ما نحن فيه. فلا يشغلون أنفسهم بغير ربـــهم حتى لا يضيع عمرهم فى جدل زائف أو فى جدل أجوف.

﴿والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما﴾ (الفرقان: ٦٤).

– يبيتون لربهم. يبيتون لربهم سجدا وقياما هل هم آمنوا؟ لا. إن خوفـــهم منه أمنهم منه. فلما خافوا منه أمنهم. فلا خوف بعد. فخـــوف يؤمـــن هـــو

الخوف من أن تكون هناك معصية هو خوف حرص.

﴿والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ (الفرقان: ٦٥-٦٧).

هناك صفات كثيرة لأهل الله. لعباده. لأصحابه. لأحبابه. فهل أنت صاحب له؟. الذى يصاحبه لا يذل لسيجارة. فالسيجارة أصبحت هوى يترك بيته ليذهب إلى الأكشاك فى العتبة والأوبرا والهرم.

- من أراد صاحبا فالله يكفيه.
- ومن أراد مؤنسا فالقرآن يكفيه.
- ومن أراد غنى فالقناعة تكفيه.
- ومن أراد واعظا فالموت يكفيه.
- ومن لم يرض بهذه الأربع فالنار تكفيه.

فعندما تتم الصحبة. يغار الله على بعدك عنه كما يغار الصاحب على بعد صاحبه.

فسيدنا جبريل عليه السلام. سأله النبى ﷺ وقد غاب عنه فترة. فقال:

- يا أخى يا جبريل (معنى الحديث) لقد اشتقنا إليك. أما تزورنا كما كنت تزورنا؟ أو. لم لا تزورنا؟ كما كنت تزورنا؟ فلم يجب حتى نزل قوله تعالى:

﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا﴾ (مريم: ٦٤).

فشوقه إلى سيدنا جبريل. لصحبته. كان شوقه إلى الله أعظم. فمن بعد الوحى لم يحجب بجبريل عن ربه. فخشى البعد. خشى أن يكون الله قد قلاه

(أى أقصاه وأبعده) وقد ذاق حلاوة الحب والصحبة والمعرفة. عاش. وتذوق هذا المعنى. فكان يقف على الجبال يترقب رسول حبيبه. ينتظـــره. ينتظـــر كلمة ترضيه. لا لدنيا فقد عرضت عليه جبال تهامة أن تكون ذهبا. فـــأبى. فقال. أجوع يوما فأحمد الله. وأشبع يوما فأشكر الله. الله. الله. الله. فى كـــل لفظ يعرض عليه جوابا صحيحا ناصحا لا غبار فيه. لا شيء. الله. الله. الله. الله. حتى نزل قوله تعالى يقسم من أجل الشوق. شوق رسول الله ﷺ إلـــى ربه. شوق الصاحب إلى صاحبه. والحبيب إلى حبيبه.

﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلـــى * وللآخـــرة خير لك من الأولى﴾ (الضحى: ١-٤).

أى كلما نزل عليك القرآن فهو خير لك مما سبق. بل الآخرة كلها خـــير لك من الدنيا كلها.

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (الضحى: ٥).

فلم يطلب شيئا لنفسه. عندما نزلت هذه الآية الشريفة قال ﷺ: "والله مـــا أرضى وواحد من أمتى فى النار".

الصاحب لله الذى ذاق حلاوة معرفته هو صاحب للأمة فلا أنانية فيمـــن يعرف الله.

وأقف عند هذا القول نرى فيه نفس المتصوف هل هو صـــاحب لله أى ليس أنانيا. فذاته لله أم ذاته لنفسه؟ فإن كانت لله فهو للناس رحمة.

وإن كانت ذاته لنفسه فليعد التربية مرة أخرى حتى يتعلم حقيقـــة الفنـــاء وحقيقة الأنا.

الأنـــــا

تبين لنا أن المؤمن الذى يرجو معرفة الله سبحانه وتعالى يتقرب إليه هو المؤمن الذى يبدأ بما فرض الله وأن يجتنب ما نهى الله عنه. وأن يحسن أداء ما يصنع. أن يحسن الصلاة وأن يحسن الصوم وأن يحسن كل شــــىء. وأن يكون حذرا فى اجتناب ما نهى الله عنه. ومن هنا يبدأ الطريق. بداية الطريق إلى الله أن يحاسب المؤمن نفسه. ولم نقل فى هذا المقام "المسلم" لأن المســلم قد يكون فى فعله شيء يخالف ايمانه. أى يفعل الظواهر.

ولكن الدقة فى كلمة "المؤمن" فيبدأ الطريق مراقبا لله. وأن يحس مـــن واقع نفسه إحساس الحب والكره. فيحب ما أحب الله ويكره مـــا يكــره الله. عندئذ يكون قد بدأ الطريق. وقد أشرت سابقا إلى معنى جديد مـــن المعـــانى التى نقدم لها لمعنى التصوف. وهى كلمة "أنا".

أولا: التباهى بالأعمال والاطمئنان للقبول دون رجائه:

كلمة "أنا" كلمة يقولها الإنسان وقد يقولها من باب الإيمان ومـــن بـــاب اليقين دون دنيا ودون أنانية.

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى﴾ (الكهف: ١١٠).

عندما يقول "أنا" يبين ما هو عليه ﷺ.

﴿وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام: ١٦٣).

يذكر ذلك ﷺ تحدثا بنعمة الله. وقد تكون كلمة "أنا" فى غير ذلك فإذا كـــانت الكلمة اعترافا بالإيمان واعترافا بفضل الله دون رياء أو ســـمعة. فـــهذا مقبـــول على العين والرأس ولكن الخطر إذا قال أنا فعلت وأظهر نفسه ومـــا يفعـــل مـــن الطاعات. أما فعل المعاصى فلا نذكرها لأننا انتقلنا للإيمان والعمل الصالح.

فالإيمان والعمل الصالح والإحسان فى العمل هو أول الطريق والإحساس بمراقبة الله تعالى.

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل: ١٣٨).

فكلامنا فيمن يعمل عملا صالحا ثم يذكره وينكر أنه فعل كذا. فإذا كان على سبيل التحدث بنعمة الله دون تزكية النفس. وإذا كان اعترافا بفضل الله فلا بأس. ولكن إذا قال "أنا" وزين له الشيطان أنه أعبد من غيره أو أقرب من غيره. هذه من الأشياء الدقيقة التى قد لا يشعر بها كثير من العباد وكثير من المقربين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ (الأعلى: ١٤).

أى من تطهر ورقى ونما إلى أعلى.

﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ (الأعلى: ١٥).

﴿قد أفلح من زكاها﴾ (الشمس: ٩). أى من زكى نفسه. إذن هذا شىء جميل أن المؤمن قد زكى نفسه أى طهرها فكرمها وخلصها من المعاصى وجعلها فى طاعة الله.

﴿قد أفلح من زكاها﴾. أى نفسه. إلى هذا الحد لا جدال. ولكن الجدال أو الكلام فيمن يذكر ذلك للناس. هو عند العبادة لم يراء ولكنه بعد أن عبد ذكر ما يصنع على سبيل التزكية وعلى سبيل الانفراد بصفاته عن الناس وأنه بعبادته هو أعلى وأرقى من غيره.

إن الذى يريد أن يتقرب.. يتقرب بالتخلص من هذا الخلق.. لأنه خلق ذميم.. يولد الكبر فى النفس والتعالى على الناس.. وعندئذ لا يتقدم فى عبادته.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (النجم: ٣٢).

لأن الذى يعبد الله لا يحكم على العبادة بالقبول وإنما الذى يعبد الله يرجو القبول ففرق بين رجاء القبول وبين الحكم على نفسك بالقبول.

أمران مختلفان وشتان ما بينهما. بين عبادة يرجى قبولها.. وبين عبادة أنت تحكم على قبولها. ومن هنا كان الحكم على نفسك بالتزكية وبالرقى وبالدرجات العلى. فأنت ظالم لنفسك. فأنت بهذا الحكم لا تتقرب وإنما بهذا الحكم تبعد كثيرا وتتأخر.

﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (النجم: ٣٢).

فبعلمه بمن اتقى يحكم على هذه التقوى ويقدرها ويضع أجرها ومثوبتها ودرجتها. وما للعبد فى هذا العمل من درجات ومن قرب ومن أحب إلى غير ذلك من المعانى التى يسمو بها بعبادته.

فكلمة "أنا فعلت" على سبيل الحكم بالقبول والتأكد من الرب. هذا أمر يجب أن نتخلص منه لأنه لا يتقدم به العبد بل يصيب النفس بالغرور ويتخلف كثيرا عن المعنى المراد.

فالقبول شيء.. والعمل شيء آخر. أنت قد عملت.. فألح فى القبول. فإذا قبلت فبها ونعمت وإلا فاعلم أنك بين الرجاء والقبول. أنت ترجو. فكن عند رجائك دائما ولا تحكم فى نهاية عملك أنك قد قبلت.. فكن فى مقام الرجاء حتى لا تكون كلمة "أنا" لها مكان ولها سدود وحدود بينك وبين الله.

فقولك" أنا.. أنا.. أنا.." يدل على أنك تعلم أنك مقبول.. وكيف ذلك؟ لا.. هذا شأن العامة. وهذا خطأ فى حد ذاته سواء للعامة أو للخاصة.

سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. وهو خليل الله.

يقول الله سبحانه وتعالى فى شأنه:

- ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا

لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ (النحل: ١٢٠-١٢١).

هذا الخليل يقول الله فى رقيه:﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكـــوت الســـموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام: ٧٥).

فلما كشف الله سبحانه وتعالى له عن أسرار الملكوت.. فالملك ظواهـــر الكون والملكوت سره. فأنت ترى الكائنات كما رأى سيدنا إبراهيم‌عليه السلام ولكن هل كشف الله لك عن سر الكائنات وهو الملكوت؟.. لا.. إلا لمن أراد.

"وكذلك نرى إبراهيم" فخص إبراهيم بالكشف عن سر أو عـــن أســـرار أرادها الله. أو أراد الله أن يكشفها له.

﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنيـــن﴾ (الأنعام: ٧٥).

فأصبح من الموقنين.. لا يشك فى وحدانية الله.. ولا يشك فى أى أمـــر أمره به.. أو فى أى نهى نهاه عنه. مع هذا لم يقل " أنا.. أنا" إلا فى مجـــال المجادلة لإظهار الحق ولم يذكر نفســـه بكمـــال العبـــادة وكمـــال الرقـــى والمقامات.. لا لم يقل هذا. ولكنه كان يرجو القبول من الله تعـــالى فيعلمنـــا بخله الجليل أن العبادة شىء يرجى قبولها عند الله. فالعبادة فى حـــد ذاتـــها سبب للوصول. والتذلل لقبولها سبب آخر. فقد جمعت بين عبـــادتين.. بيـــن عبادة تتقرب بها إلى الله وهى سبب. سبب آخر يضاف وهو أن تلـــح فـــى القبول وأن ترجو قبول هذه العبادة. هذه عبادة أخرى.

فقد جمعت بين عبادتين. بين العمل وبين رجاء قبوله.

أما إذا حكمت على العمل بالقبول.. فمن أين لك هذا الحكم؟ ومـــا أدراك! فربما يكون فى العبادة نقص. فكيف تحكم على عبادتك بأنها كاملة وتقـــول أنا.. وأنا..!!.

هذا أمر مستبعد عند أهل الصفاء وعند المتعبدين وعند العباد الذين يرجون القبول والقربى إلى الله تبارك وتعالى.

فالعبادة وسيلة للقرب إلى الله.. ورجاء قبول العبادة وسيلة أخرى للقوب إلى الله سبحانه وتعالى.

فقد جمعت بعبادة واحدة بين وسيلتين. بين أن تصحح العبادة وان تحسنها رجاء القبول. ومع إنك تحسنها رجاء للقبول. تلح على الله فى القبول فأنت جامع فى هذا إلى جمال العبادة فى حسنها.. وفى رجاء قبولها.. وفى التذلل والإلحاح فى القبول. وهذا هو الخلق الذى يبعدك عن كلمة "أنا" أو عن شعور "أنا".

لا أنت!!.. أين أنت؟

أنت عبد ترجو وجه الله تبارك وتعالى بعبادة حسنة.. وهذه العبادة الحسنة تؤهلك لكى تقبل عنده. فالغاية هى القبول وليس العمل.

العمل. سبب.. والقبول هو الغاية.

فقد جمعت بين السبب والغاية لكى تكون عبدا تريد القربى إليه. وتتمنى أن يقبلك فى عمل حتى تكون من المقبولين. وليس من المصلين أو الصائمين أو الحاجين أو المعتمرين أو المتصدقين. أنت تفعل هذا. ولكن ترجو القبول عند الله تبارك وتعالى.

سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن بنى الكعبة وكان معه سيدنا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.. بعد بناء الكعبة قالا: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة: ١٢٧). فربط بين طلب القبول وبين ترك التقدير له.

ولم يقل.. ربنا تقبل منا فإنا صنعنا الكعبة وبنينا الكعبة وتعبنا فى الكعبة وعلونا فى الكعبة وصنعنا للكعبة.

لا. ترك له التقدير. فأنت كنت تسمع. وكلمة تسمع يعنى يسمع ما ظهر وما بطن. يسمع السر وأخفى. فليس هناك شىء خفى عنك وأنت أعلم. إن كان هذا يرضيك فاقبلنا.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ (البقرة: ١٢٧-١٢٨).

وهكذا نجد أن هناك الخليل الذى وصل إلى درجة اليقين عليه الصلاة والسلام لم يعتمد ولم يقل "أنا وإنما رغم جلال قدره.. ورغم جماله فعله وحسن صنعه.. كان يرجو القبول.. ولم تكن نفسه إلا خاضعة له حتى لا تعلو عليه وحتى لا تسول له شيئا فى تقدير أم هو من صنع الله وحده.

فأنت فى تقديرك لنفسك أنت شريك له.. جعلك شريكا فى تقدير الأعمال. وهكذا يقول السادة ﷺ.. إن الإحساس بأنك تقدر عملك هو إحساس بالشرك.. هو إحساس بالشرك لأن الذى يقدر الأعمال هو الله.. فأنت شاركته فى العلم وشاركته فى التقدير. وشاركته فى تقدير الدرجات وفى تقدير الحسنات وفى تقدير هذه الأشياء.

ثانيا: أهمية عدم تزكية النفس فى الأعمال والعبادات:

إذن.. ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (النجم: ٣٢).

من هنا يظل العبد.. عبدا لله. يزداد حسنا فيزداد إحسانا. هذا هو الأصل الذى يبعدك عن القبول وعن الرجاء فى القبول.

السيدة أم السيدة مريم عليها الصلاة والسلام. كانت ترجو أن يكون لها ذكر يخدم بيت المقدس.. فجاءت أنثى وهذا أمر الله.

﴿إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم﴾ (آل عمران: ٣٥).

فكلمة "فتقبل منى" هو رجاء القبول. وهذا عمل جليل. أم تـهب ولدهـا للحرم ولا تتمتع به. ويترك لله. وهى تعلم أنها ستحرم منـه وإنمـا ترجـو القبول. ولم تقل أنا قدمت للبيت وأنا صنعت ما لم تصنع أنثى وأنا.. وأنـا. لا. لم تقل هذا. تعلموا من القرآن حقيقة الوصول.

﴿إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبـل منى إنك أنت السميع العليم﴾ (آل عمران: ٣٥).

نفس الختام السابق فى الدعاء السابق الذى كان من سيدنا إبراهيم وسـيدنا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة: ١٢٧).

وهنا ﴿فتقبل منى إنك أنت السميع العليم﴾ (آل عمران: ٣٥).

﴿فلما وضعتها قالت ربى إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتـها مـن الشـيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ (آل عمران: ٣٦-٣٧).

الذى حكم على العمل هو الله. الذى حكم على الصنع هو الله. ولم تقـل هى "فتقبل منى فتقبلنى" لا. لا. لا.

هى منتظرة نتيجة نيتها. ونتيجة قربها. ونتيجة عملها. هى لا تحكم على نواياها. ولا تحكم على أعمالها بالقبول لمجرد العمل أو لمجرد النية. تنتظـر النتيجة. تنتظر نتيجة الحكم. فالحكم بالقبول ليس من صنع البشر وإنما الحكم بالقبول هو من الله وحده لا شريك له.

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلمـا دخـل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هـو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (آل عمران: ٣٧).

السيدة مريم قبلها الله. وكانت فى المسجد فتعلمت أن لا أنا. أن لا أنـــا. أن لا أنا.

"قال يا مريم أنى لك هذا" لو كان هناك أنا لقالت. أنا عابدة. أنا مصليـة. أنا متبتلة. أنا البتول. هذه بركاتي.. هذه أنوارى.. لا يكون هذا مـــن أهــل القرب. فأهل القرب أفنوا ما عندهم. "وهذا ما أحب أن أقول" أفنوا ما عندهم فى حكم الله. فهم فى حال فناء – أى لا ذكر لأعمالهم وإنما ذكرهم هو رجاء القبول. أن يقبلوا. أن يقبلوا.. فهنا لا "أنا".

﴿قالت هو من عند الله إن الله يرزق مـــن يشـــاء بغـــير حســـاب﴾ (آل عمران: ٣٧).

يقول الله سبحانه وتعالى.. يقول فى المؤمنين الذين خلت قلوبهم من الدنيا وهم فيها. ويعبدون الله تعالى. هم فى تجارة والتجارة لم تلههم ولم تشغلهم.

﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصـــال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقـــام الصـــلاة وإيتـــاء الزكـــاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصـــار * ليجزيـــهم الله أحســـن مـــا عملـــوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (النور:٣٦-٣٨).

ليجزيهم الله أحسن ما عملوا. فهناك أعمال أحسنوها فهو يقبل أحســـنها فإذا علم المؤمن أن الله يقبل الأحسن فيزيد المؤمن علمه حسنا. فإذا أدرك أن الله يقبل ما هو أحسن فيجتهد أن يحسن العمل رجاء القبول. لا رجاء ذكـــر العمل. فالعمل وسيلة.

يقول تبارك وتعالى: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجـاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة﴾ (الأحقاف: ١٦).

فعلمت أن للمؤمن الذى يتقرب إلى الله لا يرتكن إلى عمله.. فإذا حكـــم

على عمله بالقبول فقد ادعى شيئا لم يكن له.

وعندما يحكم الإنسان على عمله بالقبول يتوهم أن يحسن العمل. وهو لا يحسنه فإذن أعماله لا تقبل.

لو أعطى الله الناس الحكم على أعمالهم بالقبول. ما صعد عمل إلى الله فكل إنسان يحكم على عمله بالقبول ولا يرضى أن يوصف بالنقص. إذا قلت له إن عملك ناقص. غضب.. إن عملك يحتاج إلى حسن. غضب لأنه حكم على نفسه بالقبول. فكأن الإنسان هو الذى يعمل وهو الذى يحكم على نفسه بالقبول. والإنسان لا يحكم على نفسه بالخطأ.

إذن ننخلع أو نخلص إلى أن المؤمن يعمل ويحسن العمل ويترك التقدير لله تبارك وتعالى وحده. ومن هنا يظل حائرا.. هل قبل أم لم يقبل؟! فيزداد حسنا حتى يكون من المقربين.

المصطفى ﷺ وهو أكمل الخلق. وأقربهم وأتقاهم كما وصف نفسه.

"إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له".

وهذا حق. لا يقول ذلك بالحكم على نفسه وإنما ألهمه الله بأنه كذلك ويقول فى حق نفسه ﷺ: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر".

ويقول كما فى القرآن الكريم:﴿وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام: ١٦٣).

كان لا يحكم على نفسه بالقبول قط.

فإذا عمل عملا. أحس بأن العمل يحتاج إلى كمال.. وعمله كامل.

وهو باعتباره رسول الله ﷺ. ونبى. ومن أولى العزم. فهذا أمر طبيعى. وإنما يخشى ذلك.

وكان يقول فى حديثه الصحيح:

"والله إنه ليغان على قلبى "أى أحس بالنقص" وإنى لأستغفر الله فى اليوم

سبعين مرة. وفى رواية مائة مرة وفى رواية أكثر من مائة مرة".

لم هذا ؟!.

لأنه من أعبد الخلق. وهو أعبدهم. كان إذا صلى استغفر الله بعد الصلاة خشية أن يكون فى صلاته تقصير. أو فى صلاته شيء. هذا شعوره وليس فى صلاته شيء فهو إمام العابدين. وإمام المصلين. ولكنه يحس فى جانب كمال الله بأنه عبد. والعبد بجانب الكمال الأعظم يتأتى منه التقصير ويتأتى منه النقص فى جانب كمال الله تعالى.

فالمسالة مسألة عبد وسيده. ومسألة متقرب وقريب. فمن أسمائه "القريب".

وبقدر إحساسك برغبتك العظيمة فى القرب. أن تحكم على عملك بالنقص. فإذا حكمت على عملك بالنقص رجاء القبول. فهذا هو القبول إن شاء الله. فيقبل العبد بعمله الصالح وبإحساسه بالنقص حتى يزداد حسنا.. ولا يحكم على نفسه. اقتداء بأسعد الخلق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

والكلام دائما يدلل بالحجج حتى ترتاح النفوس. ولا نأتى بإنشاء عبارات ثم ينفض السمع بغير رسوخ أدلة فى العقل.

فنحن عندما نتكلم عن القرب وعن مقام القرب. فهذا هو مقام القرب. مؤمن يعمل عملا ولا يزكى نفسه بهذا العمل على غيره. لأنه لا يدرى هل قبل أم لم يقبل؟! فالإنسان فى هذا الطريق الذى يرجو به القبول عند الله سبحانه وتعالى. هذا هو الذى يحكم عليه بأنه من أهل تصفية النفس وتخليصها من الأنا والغرور.. ومن التزكية بغير الحق. وهذا ما يجعل الإنسان فى مقام العبودية على أحسن أحوالها.

نبينا وحبيبنا المصطفى ﷺ ربى أصحابه على ذلك. حتى لا يرى الإنسان

نفسه أنه على شيء.

فسيدنا حذيفة بن اليمان ﷺ كان له من فضل الله عليه. كرامــة.. كــان يحس بالنفاق فى المنافقين. وكان يأتى إليه سيدنا عمــرﷺ (وهــو الملــهم) يقول: يا حذيفة بالله عليك شمنى. هل ترى فى نفاقا أى دلنى. وخيركم مــن أهدى إلى عيوبى.

فكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ينتظر الواحد منــهم نصيحــة أخيه. ومن هنا نعلم أنهم لم يزكوا أنفسهم على غيرهم. ولم يقل واحد منــهم أنا أحسن من غيرى. أو أنا أعلم من غيرى أو كذا. أو كذا. إلا على ســبيل التحدث بفضل الله تبارك وتعالى.

وكما ورد. كان يقول سيدنا أبو بكر ﷺ: لو كانت رجل أبى بكر اليمنــى فى الجنة والأخرى خارجها ما أمن أبو بكر مكر الله.

وهذا إنسان لم يحكم على نفسه أنه من أهل الجنة. وإنما هو فــى مقــام الرجاء. حتى لو دخل برجله اليمنى. هو فى رجاء مستمر حتى يوم القيامــة فإذا دخل الجنة برجله اليمنى يخشى ألا تدخل اليسرى.

فهذه المشاعر الجياشة فى تحرير النفس من الغرور ومن تقدير الأعمال. ومن رؤية الإنسان على غيره بأنه أعبد الناس أو أفضل النــاس. أو أكمــل الناس أو انتهت عنده الولاية أو انتهت عنده الكرامــات. أو انتــهت عنــده العلوم. فهذا أمر فيه ادعاء. لأن فضل الله إلى يوم القيامة.

فإذا قال جماعة فى واحد من العلماء إن العلوم قد انتهت إلى فلان "مــن أسمائه العليم" فهل لا يأتى أحد بعد هذا بعلم؟..

هذا قد انتهت إليه الولاية "يعنى الولاية جاءت إلى عنده وتوقفــت أى لا يكون هناك ولى بعده" فهل من المعقول أن الله تعالى قد أوقف قدرتــه فــى

العطاء إلى فلان الفلانى؟!..!

فنقرأ فى هذه المسائل ما يشير إلى هذه المعانى التى تحتاج إلى تمحيص. فلا يؤخذ كل شيء. إنما يؤخذ ما وافق الكتاب والسنة. فإذا كان الأمر مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة فهذا يرد ولا ينظر إليه. وفى كل الدروس فى التصوف سننتهى إلى الحكم الذى يقبله الشرع ويقره بالأدلة الصحيحة التى لا جدال فيها.

إذن تزكية النفس هى حجاب عن الرقى. حجاب يحجب المؤمن الذى يريد القرب. يحجبه عن مواصلة القرب إلى الله تبارك وتعالى لأنه أحس بأنه من الأولياء. وأحس أنه من المقربين وهذا من غرور النفس ومن وسوسة الشيطان.

ثالثا: خلق الخشية من الله تعالى مع مراقبته ورجائه تعالى دائما:

أذكر خلقا آخر فى هذا المعنى من أخلاق أصحاب رسول الله ﷺ: فكان الواحد منهم يبكى فيكثر البكاء. وكان يقول لصاحبه: والله لا أدرى هل هناك السلامة أم لا؟ هل هناك القبول أم لا؟

فقد جاء سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشام. والتقى بأبى عبيدة بن الجراح ﷺ. وكان أبو عبيدة واليا. فنزل عمر عنده فوجد قربة ماء وكسرا يابسة فقال له: يا أبا عبيدة! أما لك راتب من بيت المال؟

فقال: نعم! ولكنى أنفقه على المسلمين. ثم قال: يا عمر أين نحن من رسول الله ﷺ؟ وكان يطوى الليالى ذوات العدد دون طعام! وكان يمر الهلال والهلالان ولا يوقد فى بيته نار "أى لا يطبخ لحما" وأين نحن من مصعب بن عمير الذى استشهد وعليه بردة بالية إن وضعت على رأسه انحسرت عن رجليه. وإن وضعت على رجليه انحسرت عن رأسه. أين نحن؟! أين نحن؟!

أين نحن ويبكى عمر ويبكى أبو عبيدة. ولم يقل عمر نحن المبشرون بالجنة. ولم يقل أبو عبيدة لقد بشرنا بالجنة فلنأكل ونشرب ونتطيب. ولنمـــرح فـــى الأرض. إنهما يريدان وجه الله. والذى يريد وجه الله لا يزكى نفسه بدنيـــاه ولا يزكى نفسه بأى عمل من الأعمال. ولعمر قدره ولأبى عبيدة كذلك.

المراد هو الله. وكان هذا المعنى هو السارى فى عقول الراغبين إليـــه. الطامعين فى رحمته. الراجين عفوه. المتقبلين قبولـــه المتعبديـــن لذاتـــه. لا يرضون بغيره بديلا. فلا يحجبهم عمل عملوه. ولا تحجبـــهم تزكيـــة نفـــس فالذى يزكيها هو خالقها. والذى يكرمها هو بارئها بالإيمان والعمل الصـــالح. عندما انتقل سيدنا أبو بكر ﷺ. وتولى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الخلافـــة. عزل خالد بن الوليد عزلة فى أوج النصر فى موقعة اليرموك. فأرسل رسالة مع أبى عبيدة الجراح.

معنى الرسالة: عندما تتسلم هذه الرسالة. فأعط الراية لأبى عبيـــدة بـــن الجراح وكن جنديا تحت إمرأته. (تعلموا لا أنا. فتقدم الإسلام) فلما تسلم أبـــو عبيدة بن الجراح ﷺ الرسالة وذهب إلى اليرموك. وجد النصر يتلألأ إلـــى عنان السماء. ووجد راية الإسلام تعلو راية الكفر على يد خالد بـــن الوليـــد ومن معه من جند الله. فاستحيا أن يكسر راية النصر. فالغاية هى الله. فلمـــا انتهت المعركة وكانت الغلبة للمسلمين فى أروع مظاهر النصـــر الخـــالص النقى من العلل والأعراض. فقال: عظم الله أجرك فى خليفة رسول الله أبـــى بكر الصديق. وهذه رسالة من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب ﷺ .

فقرأ الرسالة وسلمه الراية وقال: يا أبا عبيدة لم لم تعطنى الرسالة عندمـــا قدمت؟ فقال: خشيت أن أكسر عليك حدة النصر.

فسلمه الراية وقاتل خالد بن الوليد تحت إمرة أخيـــه ابتغـــاء وجـــه الله

تعـــالى حتى تعلو راية الإسلام.

إذن مراقبة ورجاء القبول فى كل زوايا أعمال الإسلام. وليس فى زاويــة المسجد. وليس فى التوقع وإنما هذا هو انطلاق الأمة فى كل أعمالها.

وأنا لا أقصد بمعنى التصوف أن يجلس المؤمـــن مســبحا. مقدســا. حــامدا شاكرا فى كثبان رمل. أو فى مظلة شجرة. أو فى داخل خيمة أو فى زاوية مــــن زوايا المسجد. وإنما هذا الذى ينطلق بدينه. وينطلق بالله إلى كل أرض الله.

فلما رجع خالد بن الوليد والتقى بسيدنا عمر ﷺ فقال:

يا عمر يا أمير المؤمنين. لم عزلتنى؟ ألعيب فى أو نقيصة أم نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم؟

فقال: يا خالد.. لقد افتتن بك الناس. أى صرت عائقا فى إخلاص النـــاس فى الجهاد. صرت عقبة. حجابا. مانعا فى إخلاص المؤمن فى جهاده. ونحن نعمل لله. فأى شىء يؤدى إلى شبهة فى عمل من الأعمال لا بد من التخلص منه. فأردت أن أعزلك حتى إذا انتصر المسلمون علموا أن النصر من عنــد الله. لا من عند خالد بن الوليد.

هذا التناصح فى إزالة شبهات العقيدة فى تزكية النفس وفى الخشية علــى الناس من فتن الشيطان ومن هوى الضلال. ليكون العمل خالصـــــا لوجهــه الكريم بغية القبول عند الله تبارك وتعالى. وهذا من مبادىء تحرير النفـــس من تزكية الإنسان لنفسه. والحكم عليها من تلقائه. فنحن لا نحكم وإنما نترك الأمر لله تبارك وتعالى.

الإمام أبو حنيفة ﷺ وأرضاه. كان يشغل بالفلسفة وعلم الكلام فى بدايـــة شبابه. وكان يمشى فى الطريق فقابله واحد من عامة الناس فقال:

يا أبا حنيفة أجبنى عن هذا السؤال. فسأله سؤالا فى الفقه. فلم يجبه فقال:

يا أبا حنيفة تعلم علما ينفعك وينفع الناس.

وهو من العلماء الأجلاء فلم ير نفسه أنه على شيء بل أخذ هذه الحكمة وعرف قدره فقال: حقا ما قاله الرجل.

عندما تلغى "أنا" يأتى الفتح.. فجاء الفتح عليه بالفقه وعلوم الشريعة فذهب إلى حماد ﷺ فى العراق فتلقى عليه. تلقى عليه الفقه وظل يذكر كلمة الرجل حتى أمعن فى دراسته وازدهت.

وفى البداية لو قال أبو حنيفة: أنا أبو حنيفة أو أنا عالم الكلام أو عالم الفلسفة. لكان حجابا. فكلمة "أنا" تحجب العلم. وتحجب الرقى. وتحجب الأنوار وتحجب الأفهام تحجب كل شيء. فتلقى علوم الفقه حتى صار إماما فيها ومرجعا من المراجع التى يأنس إليها القلب ويرتاح إليها الفؤاد.

فى يوم من الأيام كان يمر فى الطريق فتكلم اثنان وراءه فقال واحد للآخر: هذا أبو حنيفة الذى يقوم الليل كله.

فنظر إلى نفسه (هو لا يقوم الليل) فقال:

اللهم اجعلنى عند حسن ظنهما. ولم يغتر ولم يقل عن نفسه إنه يقوم الليل. أو يتباهى بقول الناس عنه إنه يقوم الليل. وذهب إلى المسجد. وكان يقرأ سورة القمر حتى وصل إلى قوله تعالى:

﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ (القمر: ٤٦).

وظل يبكى ويكررها. يبكى ويكررها. حتى قيل له:

يا أبا حنيفة سمعناك تقرأ آية من سورة القمر وتكررها وقد ظهر بكاؤك ونحيبك!.

قال: أنا أعلم بحالى. أنا أعلم بحالى.

فمظهر العلم وإقبال الناس عليه لم يحجبه عن حقيقة نفسه وما بينه وبين خالقه.

كما يقول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ.

إذا رأيت الناس يقبلون عليك أو يلتفون حولك فانظر فيما بينك وبين الله.

(يسلمون عليك ويقولون يا سلام على ولى الله. لا إله إلا الله. البركات والذى يقبل يده ويلتزم. لم يصل الصلاة فى أوقاتها أو ظالم لزوجه أو ظالم لأمه وكذا. وكذا.).

فيغتر وقال (أنا) بكلام الناس ومظاهر الناس. وبإقبال الناس. ويقال هذا الذى تقبل عليه الآلاف ويمدح فى المجالس ويمدح فى المجتمعات وهذا الذى ذاع صيته فى بقاع العالم. وهذا علم الإذاعة والتليفزيون وهذا الذى انتشرت كتبه فى أفريقيا وهذا الذى.. حتى تشنجوا كلما قيل فيه ذلك هل هو كذلك؟!

فعرفنا الأمرين:

- فلا تزكوا أنفسكم بحكم أنفسكم على أنفسكم.
- ولا تزكوا أنفسكم بحكم غيركم عليكم دون حق.

إذا رأيت الناس يلتفون حولك فانظر فيما بينك وبين الله.

رابعا: أهمية عدم حب تزكية الناس للنفس بما لم تفعل:

بقى شىء.. وهو حب الإنسان أن يزكى.

﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ (آل عمران: ١٨٨).

أولا: فلا تزكوا أنفسكم من تلقاء أنفسكم أو بغيركم. هذا شىء. يأتى شىء آخر وهو أن تخلق "أنا" بغير عمل. يعنى فى المسألة الأولى كانت هناك تزكية بعمل. فظننت أنه من الأعمال المقبولة وحكمت عليه. وحكمت بأنك من المقبولين بغيرك وبكلام غيرك.

هذه المرة أنت لم تصنع شيئا.

﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ (آل عمران: ١٨٨).

وهذا كثير فى مدعى القرب ومدعى الحب. لم يعمل شيئا فنجده ينتظر فى المجالس التى يمدح فيها هؤلاء (إن الشيخ فلان وهو إمام الواصلين وسيد العارفين. وخير المقربين. وعترة المقبولين الذى أنفاسه حمد ونظراته شكر. وأمعاؤه تقديس. (وليس فيه شيء من ذلك) الذى وهب ماله ونفسه (ولم يهب مالا ولا نفسا) بيشخر طول النهار. فيحكم على نفسه بما قيل وليس فيه شيء من ذلك لا من قريب ولا من بعيد).

فالخطر فى أمور ثلاثة:

فى تزكية النفس مع العمل والحكم بالقبول.

فى تزكية النفس بالغير مع العمل والحكم بالقبول.

والأدهى الحكم بغير عمل وتزكية النفس بقول القائلين دون عمل.

هذه أنواع التزكية التى نعلمها فى هذا العلم. وهو علم الوصول إلى الله وعلم التقرب إليه وعلم المعرفة به.

وهنا يكون السلوك إلى الله بهذا الفهم وبهذه المعانى التى نقتبسها ونتعلمها ونسترشد بها من كتاب الله سبحانه وتعالى ومن سنة المصطفى ﷺ.

فلا نقبل فى أذهاننا. ولا نقر ولا نسلك سبيلا لا حكم للإسلام فيه بل نأتى إلى مظلة الحكم الشرعى وإلى مرآته وإلى سراجه وأضوائه. فيظهر الأمر على حقيقته وهنا تتجلى لك نفسك.

١- هل أنت من الذين يزكون أنفسهم بالحكم على ذاتك بالقبول؟ من أين لك هذا ؟!.

٢- أو بحكم غيرك عليك بالقبول؟ هل علموا شيئا ؟!. لا.

٣- مدح الناس بما ليس فيك فزكيت نفسك. وهذا أدهى وأمر وأشد. ومن هنا يتوقف الإنسان عن الوصول إلى الله بتزكية نفسه أو بتزكية غيره أو بمدحه بما ليس فيه.

هذه من الحجب التى يصل بها العبد مهما صلى ومهما صام ومهما عمل من الأعمال.

الوصول إلى الله تبارك وتعالى بهذا المعنى كما يقول أحد العشاق.

(زدنى بفرط الحب فيك تحيرا)

بمعنى لا تشعرنى بالقبول حتى لا أركن إليه.

وفى قول بعضهم:

(زدنى بفرط الحب فيك تفتنا)

حتى أتفتن وأتنوع فى التقرب إليك بأنواع العبادات فتارة أصلى وتارة أصوم وتارة أسبح وتارة أستغفر وتارة أقرأ القرآن وتارة أصلى على الرسول ﷺ وتارة أزكى وتارة أتصدق وتارة أصل الرحم وتارة أعلم الناس إلى غير ذلك من معانى الإسلام ومن مدد العطاء الذى جعله الله سبيلا إليه.

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

يقول أحد العارفين لقد طرقت. أى طرق كل الأبواب ليصل إلى الله فوجدتها مزدحمة من المصلين والصائمين والمزكين والحامدين والشاكرين والمستغفرين. لقد طرقت كل الأبواب فوجدتها مزدحمة إلا باب الذل والإنكسار إليه. فسلكت إليه منه التذلل لله والإنكسار وعدم الغرور. هو الذى يزيدك قربا إليه.

ومن هنا يقول الحديث:

(من تواضع لله رفعه).

من تواضع لله رفعه. التواضع هو إذلال النفس وعدم التكبر. وعدم رؤية نفسى على الغير.

فالإنسان كلما عمل عملا تواضع لله يعنى فى جانب كمال الله. هذا عمل قليل بالنسبة لعظمة الله. فكلما تقدم الإنسان إلى الله بأعماله. رآها قليلة فى نظره تواضع فيما تقدم. وتواضع فى نفس الوقت للناس وهذا هو أصل الإسلام. أن تكون عبدا لله متواضعا أى كلما عملت. نظرت إلى أعمالك على أنها قليلة بالنسبة لجانب الله. وكذلك أن تتواضع للناس وهذا أيضا يحتاج إلى حديث وإلى حديث هام.

خامسا: عدم تزكية أنا على غيرى من الخلق:

قد علمنا فى الدروس السابقة أن التصوف غايته معرفة الله. وعرفنا أنه لا يعرف الله إلا بما علمنا وعرفنا. فبغير ذلك لا نعرفه. وأن نعرفه بشريعته وأحكامه الحكيمة من الإيمان والعمل الذى تقتضيه الشريعة. وهذا العمل وهذا الإيمان. لا بد وأن نحسن كلا منهما حتى نزداد إيمانا. ونزداد حسنا فى عملنا.

وعرفنا أن المؤمن وأن الذى أحسن عمله لا يركن إلى عمله مهما كان. وإنما يرجو القبول. فقدره عند الله بقبول عمله لا بعمله.

فقد عمل وأحسن. فلما أحسن كان ذلك سببا فى القبول.

﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة﴾ (الأحقاف: ١٦).

أيضا انتقلنا إلى درجة أخرى. وهى ألا يزكى نفسه على غيره. لأنه لا يعلم درجات العباد. هم درجات عند البشر أم هم درجات عند الله؟

﴿هم درجات عند الله﴾ (آل عمران: ١٦٣).

قد نهانا الله تبارك وتعالى أن نزكى أنفسنا بما نرى من حسن أعمالنـــــا. ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (النجم: ٣٢).

واليوم وقد وصل المؤمن إلى هذه الدرجة. فلا يزكى نفسه. وإنما يـــرى أنه ما زال مقصرا فى جناب الله.

كما ختمنا الدرس بقول الحبيب ﷺ: "والله إنه ليغان على قلبـــى. وإنـــى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من مائة مرة". صدق رسول الله ﷺ.

فهناك شعور بالنقص. في جانب الله. وهذا الشعور يرقى المؤمـــن أن يشـــعر دائما أنه فى نقص. أى أن يحس أنه مذنب ومن هنا يطهر نفسه أولا بأول.

المغفـــرة

فهناك عمل صالح.. اتفقنا عليه.

وقد أحسنا العمل.. اتفقنا على ذلك.

ووصلنا إلى رجاء القبول.. وعرفنا ذلك.

ثم انتقلنا إلى أن هذا المؤمن لا يزكى نفسه على غيره. بأنه فى مشـــاعر خاصة. والمشاعر الخاصة تجعله دائما يرجو الكمال. فشعورك بأنك كـــامل هذا حكم بأنك ناقص. والشعور بالنقص هو طريق الكمال. وكمالنا ينحصـــر فى أننا نبتغى وجه الله. والذى يبتغى وجه الله يحس دائما أنه مذنـــب وهـــذا مقام جديد فى هذا الموضوع.

وهذا الشعور يجعلك دائما تتطهر ويجعلك دائما راجعا إلى الله. إحساسك بالذنب.

والذنوب لا شك أنها معطلة. فإذا حاولت أن تتخلص منها.فقد فتحت على نفسك أبواب الرحمة. واتخذت سبيل الوصول إلى الله بإحساسك بأنك مذنب.

والذنب أنواع كثيرة. أعاذنا الله وإياكم من الذنوب المحبطة.

فالكفر.. ذنب ولا كلام فيه لأننا نتكلم فى درجات أهل الإيمان.

والله سبحانه وتعالى لا يغفر لهذا الكافر أو لهذا المشرك. وهنـــا نقطـــع الكلام عنه وندعو الله لهؤلاء بالهداية حتى يذوقوا حلاوة الإسلام ويســـتظلوا بظله. وليتشرعوا بشرعه. "اللهم أهد قومى فإنـــهم لا يعلمـــون". يقـــول الله سبحانه وتعالى فى هذا:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء: ٤٨).

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. إذن هناك ذنب وهناك مغفرة. فأنت دائمـــا

تحس أنك مذنب. هذا حالك حتى يغفر لك.

والمجهر الذى من الله به عليك هو مجهر الشريعة. أن ترى الحلال من الحرام. والخبيث من الطيب.

أولا: درجات الرقى إلى الله هى درجات الصعود على درج المغفرة دواما:

فالذى يتخلق بأخلاق القرآن يجعل الله فى قلبه فرقانا.

فهذا الذى يريد التقرب إلى الله. تخلص من الكبائر. فأصبح عنده من الزهد فى الحرام ما يجعله يكره ذكر اسمه. فيقشعر بدنه من ذكر كلمة "الزنى" فما بالك بأداء هذه الفعلة. يكره كلمة الخمر. فهل يشربها؟! إنه كره المعاصى أصلا كما قلنا لأن الله يكرهها. ولكنه بشر. قد يرتكب ذنبا من الذنوب.

فالذى يعرف الله يسارع لتخليص نفسه من ربقة ذنبه. فإن كان كبيرة يقام فيها الحد. ذهب بنفسه ليتخلص بتوبته ورجوعه إلى الله بإقامة الحد عليه. لأن الإصرار على إقامة الحد هو إصرار على لقاء الله تعالى على طهر وكمال.

كما قال النبى ﷺ فى حق المرأة التى رجمت: "والله لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين منكم أو على أهل النديمة لوسعتهم".

أما إن كان ذنبا غير ذلك فيسارع إلى الاستغفار. لأن المقامات لا يصل إليها مؤمن إلا بمغفرة بعد مغفرة بعد مغفرة. فحال المؤمن أن يستغفر الله دائما من الذنب إن كان بينا. ومن ذنب قد يكون وقع وهو لا يعلم. "اللهم إنى أستغفرك من الذنوب ما تعلم منها وما لا أعلم" أو "ما أعلم منها وما تعلم فأنت تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب".

وهكذا ننتقل من طائف يطوف على الإنسان فيحس أنه أذنب حتى ولـــو عمل صالحاً؟.. حتى ولو عمل صالحاً فإذا كانت الذنوب واضحة فالاستغفار منها لا يريد كلاماً ولكن ليس لنا كلام فى هؤلاء وإنما كلامنا فيمن تخلصوا من معاصيهم وانتقلوا إلى الطاعات فحالهم الطاعة. وحالهم أن يغفر لهم فيما حدث فى طاعتهم. فالمشكلة ليست كفراً عندهم وليست معصية من المعاصى فهم يعلمون الحلال والحرام. ولكن مشكلتهم الكبرى فى أعمالـــهم الصالحـــة وشغلهم فى أن يستغفروا الله مما قد يكون فى هذه الأعمال. من نقص وعـدم أداء. أو من رياء أو عن شبهة رياء. أو من سمعة أو عن شبهة سمعة.

يخافون خوفاً شديدا! لإحساسهم بأن أعمالهم الطيبة فى نقص.

هل لنا كلام مع الكفار؟.

هل لنا كلام مع العصاة ؟.

إننا نتكلم فى حال أهل القرب الذين يحبهم الله.

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ (البقرة: ٢٢٢).

يحب التوابين الذين يؤوبون إليه ويرجعون إليه فى كل خاطر. أو فى كل كلمة أو فى كل طائف قد يأتى.

إذن هؤلاء الذين يتحدث القرآن عنهم.. هم المثل الأعلى وهم المثال الذى يحتذى به.

وإليكم البيان من كتاب الله تبارك وتعالى:

من البداية سيدنا آدم والسيدة حواء عليهما الصلاة والسلام. وسميت حواء لأنها خلقت من حى. من ضلع من أضلاع آدم اليسرى. وهما فى جنـــة الله. لم يزنيا ولم يقتلا ولم يسرقا ولم يكذبا ولم ينافقا ولم يغشا فليس هناك حـــرام مما نتصوره فى الشرائع الأخرى. وإنما أكلا من الشجرة لمخالفة الأمر.

وهو مجرد تطويع النفس على الطاعة. وتطويع النفس على الإحساس بالذنب. فعندما أكلا من الشجرة.. لم يقل آدم ولم تقل حواء:

"وإيه يعنى.. يعنى إحنا عملنا إيه!" لا.

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣).

والأكل كان نسيانا. ولكن الأمم السابقة كانت تعاقب بالنسيان فرفع الله ذلك عن أمتنا.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

يقول الله تبارك وتعالى فى ذلك:

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾ (طه: ١١٥).

فنسى ولكنه عوقب.

ولم نجد له عزما.. أى على المعصية.

فهو ذنب لم يصر عليه.. وإنما ذنب من حيث درجة الأنبياء. ذنب نسى النهى فيه. فنسى والله الذى نساه هو الذى عاقبه. وأهبطه من الجنة ومعه زوجته.

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣).

سيدنا نوح عليه السلام. يقول الله فى حقه:

﴿رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾ (نوح: ٢٨).

فأعظم شىء يتمناه.. أن يغفر له.

هل قصر فى رسالة؟ إنها مشاعر.. نحن لا نتكلم عن الرسالة. نتكلم عن

إحساس المؤمن تجاه ربه.

هل يعتبر نفسه أنه قد كمل؟ ولا يستغفر الله من النقائص؟

إن الأنبياء بحسب درجاتهم عند الله. هذا إحساسهم.

"رب اغفر لى"

بدأ بنفسه.. لماذا يغفر له؟ ماذا صنع؟!

إنها مشاعر جياشة فى صدره. ولا يدرى فى أى وقت؟!

لقد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما. ومن ذلك يستغفر الله هل فى القرن الأول؟ أو فى القرن الثالث. أو فى القرن الخامس. أو فى القرن الثامن. أو فى القرن التاسع؟ ماذا حدث له فى هذه القرون؟ هى قرون طويلة. ولكنه يطلب المغفرة من الله تبارك وتعالى. ربما حدث منه شيء يقتضى المغفرة. وهو نبى معصوم. ولكن إحساسه فى جانب كمال الحق لا يصل إطلاقا إلى أن يقدم كمالا إلى كمال. وإنما الإحساس أن يقدم مشاعر يحس بها أنه عبد ناقص بالنسبة لكمال الله وجنابه الأعظم. وهذا ما يحس به.

لا يتصور إنسان منكم أن نوحا عليه السلام كان يستغفر من ذنوب ما ظهر منها وما بطن. أو كان يستغفر من سرقة أو من كذب أو من كذا. هذا بعيد عن هؤلاء وهم فى المستوى العالى السامى الذى لا يتصور إنسان أنهم يفعلون ذلك.

إنما أردت أن أذكر لكم إحساسهم ومشاعرهم فى حياتهم وأنهم لم يصلوا إلى الكمال قط بالنسبة لله.

أما بالنسبة: لغيرهم من الخلق. فالله وحده هو الذى يزكى عباده وهو الذى يتفضل عليهم بالدرجات العلى. هذا فضله واحسانه إنه يسمع ويرى. سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام. أيضا على هذا المنهاج نبى ورسول. ومن أولى

العزم. وخليل.

وصفه الله وصفا جليلا:

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ (النساء: ١٢٥).

فوصل إلى درجة الخلة.. ومع ذلك يستغفر الله.

واستغفاره لله هو رقى إليه. لأنه لو أحس أو ضمن أنه من أهل الكمال لكان ذلك إغلاقا دون الوصول وكان سدا منيعا وإنما يعلمنا خليل الله ﷺ. يعلمنا معنى القرب إليه.

يقول الله سبحانه وتعالى فى حق سيدنا إبراهيم:

﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ (النحل: ١٢٠-١٢١).

مقامات كبرى. ومع هذا كان يستغفر الله تبارك وتعالى:

﴿ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ (إبراهيم:٤١)

فكونه يطلب المغفرة من الله إذن طلب المغفرة هذا أمر حتمى لا يحرم منه عبد قط لأن استغفار الله تعالى هو الإحساس بالنقص فى جانب الله. وهذا ما يقربك إلى الله تبارك وتعالى بهذه المشاعر.

سيدنا موسى ﷺ: يقول الحق تبارك وتعالى فى شأنه:

﴿قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ (القصص: ١٦).

ننتقل إلى سيدنا داود ﷺ.

سيدنا داود ﷺ جاءه اثنان وعرضا قضية.

﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب﴾ (ص: ٢٣).

سيدنا داود حكم على الفور. جاءه الرجل الذى عنده نعجة واحدة تباكى وبكى وقال له: يا نبى الله هذا له تسع وتسعون نعجة ويريد أن يأخذ نعجتى. وأنا رجل مسكين وهو عنده تسع وتسعون نعجة.

فسيدنا داود حكم على هذا الإنسان الذى عنده تسع وتسعون نعجة بأنه رجل ظالم.

﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص: ٢٤-٢٥).

هذا هو مقام القلب الذى يرتب الله فيه المعانى بالكلمات العظيمة التى وردت فى هذا المعنى.

إن نبى الله تعالى حكم على هذا الإنسان أنه ظالم. فالله تعالى بين له أنه يحكم بين الناس بالعدل.. ولا بد من سماع الطرف الثانى حتى تكمل القضية.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ (ص: ٢٦).

والحق هنا أن يستمع إلى الطرفين.

إذن لا يكون القرب إلى الله بجلوس فى مكان معين. وإنما كل يريد الوصول.

فالحاكم يريد الوصول إلى الله بعدله. أما صلاته وصيامه فيشترك فيها الناس. أما هذا الإنسان يتميز عن بقية الناس فى أنه يعدل بين الخلق حتى يكون من الواصلين.

والعالم يصلى ويصوم.. ولا بد أن ينشر علمه بين الناس حتى يكون من الواصلين. وهكذا نجد أن كل إنسان ميزه الله تعالى بعمل من الأعمال أو

بعلم من العلوم. فلا بد من توصيل هذا الشيء إلى عباده وأن يخشى الله وأن يستغفره في أي نقص في هذا العمل.

أكرر المعنى..

﴿وظن داود إنما فتناه (اختبرناه) فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص: ٢٤-٢٥).

فقد غفر الله لداود عليه السلام. وهذا ما أراح صدره وما اطمأن إليه قلبه، وما كان آمنا وأمانا له في مشاعره. سيدنا سليمان عليه السلام تعلم ذلك ونهج نهجا. وقد قرأت عبارة في أخبار السابقين من الأنبياء.

قال داود عليه السلام: "ربي.. كن لسليمان كما كنت لي".

فقال: يا داود قل لسليمان يكن لي كما كنت لي. أكن له كما كنت لك.

يعني يكن لي كما كنت عابدا ترجع إلى الله وتؤوب إليه. وتخافه.. وتستغفره وتؤدي الرسالة إلى غير ذلك.

ثانيا: المغفرة أساس بقاء النعم وتصاعدها:

سيدنا سليمان عليه السلام تعلم أن المغفرة هي أساس بقاء النعم، وأساس الوصول إلى النعم من نعمة إلى نعمة أكبر فهي تثبت النعم. وتزيد من النعم.

وسيدنا سليمان عليه السلام كان حاكما وكان نبيا. فقدم المغفرة على الملك. لأن الحكم لا يدوم إلا إذا أقام صاحبه شرع الله تعالى.. يخشى غضبه.. ويرجو رحمته. فيخشى الحاكم أن يفعل ذنبا يغضب الله.. وهنا يتقوض حكمه ويزول ولا يبقى.. وسرعان ما ينتهي. فقدم طلب المغفرة على الملك فبقاء الملك ببقاء شعور الحاكم بأنه مذنب في حق الله.. حتى يتحرى تحقيق العدل وتحقيق الشرع في الأرض.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي

لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب﴾ (ص: ٣٥).

فقدم طلب المغفرة على طلب الملك أى قرن العطاء بالمغفرة وهـذا مـا يديم عليه فضل الله تبارك وتعالى.

أما الحاكم الذى لا ترق مشاعره لمعصية. إذن يهدم ملكه وجاهه بنفسـه وإن بقى قهرا فهذا لا ينجيه ولا ينفلت به من عقاب الله سبحانه وتعـالى. إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ (لقمان: ٣٣).

وقد يبارك الله فى ملك فى شهر واحد.. ينشر به الخير ببركة الحاكم لأن شعوره بالنقص يجعله يلجأ إلى الله دائما.

وقد حدث لسيدنا سليمان ذلك. فقال لمستشاريه أو وزرائه:

أئتونى بالخيل. فجاءوا بالخيل. وكان عليه صلاة العصر فشغل بـالخيل عن صلاة العصر حتى غابت الشمس.

وكان على الأمم السابقة فرضان. فرض الصبـح وفـرض العصـر أو العشى. فلما غابت الشمس وهو يستعرض الخيل. أحس بخطر عظيـم فـى نفسه وأنه نسى صلاة العصر أو شغل عنها. فأقر فى الحال ماذا صنع حتـى يكتب الله له السلامة تحقيقا لقوله:

﴿قال رب اغفر لى﴾

إنما لو فوت العصر وقال أنا مشغول بالجيش وأنا مشغول بالاسـتعراض وأنا مشغول بالاجتماع وأنا مشغول بكذا.. وتفوت الصلاة.. هـذه نواقيـس خطر فى الأمة. ونواقيس خطر فى عدم وصول العبد إلى الله مـن موقـع عمله.

فيقول الله تبارك وتعالى فى هذا ويذكر حاله وكيف ندم على ما صنع:

﴿إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد * فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب أى (الشمس) * ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق﴾ (وهو يبكى) (ص: ٣١-٣٣).

"طفق" أى ظل يمسح الخيل فى أعناقها وفى سوقها شعورا بأنه قد صنع أمرا. وأمرا كبيرا فى جانب الله.

وهو يستعرض الخيل جهادا.. ولكن المؤمن الذى يرقى إلى درجات العلا لا تشغله عبادة عن عبادة. ولا يشغله عمل عن عمل.

إلا بما شرع الله تبارك وتعالى وجعل من الرخص.

ونذكر الآية مرة أخرى: ﴿إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد * فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب * ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق﴾ (ص: ٣١-٣٣).

بعد هذا قال فى حادثة أخرى:

لأطوفن الليلة على نسائى أو على كذا منهن فيحملن ذكورا فيلدن من يجاهد فى سبيل الله.

إذن هى طاعة. ولكنها طاعة فيها شىء من النفس.. فهو ملك. فحملت واحدة وعند الوضع وضعت جسدا لا روح فيه. ولم تحمل أى واحدة أخرى. إنها تربية عالية.

فلما وضعت هذا الجسد من اللحم.. وضع على كرسى العرش وعلى كرسى الملك.. حتى يراجع نفسه وحتى يحس بما قال.

إذن هى أوليات فى التطهير وأوليات فى التخلص. وبدايات يحس المؤمن بها أو الولى أو المقرب بها أولا بأول لأن قلبه إذا ترك ذلك أصابه الصدأ.

إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد إلا أن جلاءها الذكر والاستغفار.

فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾ (ص: ٣٤).

أى رجع إلى الله تبارك وتعالى وأحس بعظم الكلمة وخطر القول. فرجع إلى الله سبحانه وتعالى واستغفر من ذلك.

العبد الأواب، الذى يؤوب إلى الله فى كل ما يصدر منه حتى يغفر له.

﴿نعم العبد إنه أواب﴾ (ص: ٣٠).

يصف الله العبد بوصف جميل "نعم العبد".

"إنه أواب": أى يؤوب ويرجع إلى الله فى كل صغيرة قبل الكبيرة حتى يصدق عليه أنه من أهل القرب والتدانى.

ثالثا: تمام النعمة والرقى والفتح ليس له باب إلا المغفرة أى دوام الاستغفار:

وأهل القرب والتدانى دائما فى شغل بما يقولون ويفعلون.. يتمنون المغفرة ويكثرون من الاستغفار لأن الاستغفار ترجمة عن تطهير النفس مما علق بها. وتطهير النفس مما علق بها هو الذى يجعل الإنسان نورانيا.. ربانيا.. صافيا.. خالصا جميل الفعل.. جميل المشاعر. حلو القول حلو المسالك. هذا هو الذى أوحاه الله إلى خاتم الأنبياء والمرسلين إلى سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

يقول الله تعالى فى سورة الفتح: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ (الفتح: ١-٣).

إن الله يذكر فى هذه الآيات الجليلة. يذكر أنه فتح على النبى ﷺ فتح عليه بالقرآن. وفتح عليه بالعلم. وفتح عليه بالإسلام. ففتح به القلوب وفتح به

البلاد. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك: ما هو الذنب الذى تقدم؟! والله يقسم بعمره: ﴿لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون﴾ (الحجر: ٧٢).

متى كان الذنب؟ والله تعالى يقول فى حقه:

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: ٤).

﴿إنك على صراط مستقيم﴾ (الزخرف: ٤٣).

هل يوجد ذنب سابق قد أخفى عنا؟ يقول الله سبحانه وتعالى فى حقه: ﴿ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: ١-٤).

إذن ليس هناك ذنب معين له ظاهر. وليس هناك ذنب أخفاه الله تعالى عن الأمة إذن لا ذنب.

﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ (النساء: ١٢٢).

﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ (النساء: ٨٧).

وإنما يريد الله أن يظهر كمال النبى ﷺ فى أنه قد غفر له فهو من قبل ومن بعد ليس هناك ذنب قد فعله.

ليس هناك معصية من المعاصى.

﴿والله يعصمك من الناس﴾ (المائدة: ٦٧).

وليس هناك نطق يستحق العقاب.

﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى﴾ (النجم: ٣-٤).

إذن فتح الله سبحانه وتعالى عليه ليعطيه أجمل ما يعطى عباده. وأجمل ما يعطى عباده "المغفرة".

ومع هذا كان ﷺ مع أنه قد أخذ وعدا بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فكان يستغفر الله تبارك وتعالى. ويعلمه الله ذلك.

إذن.. مقام القرب إلى الله لا يكون إلا بالإحساس بالذنب أولا بأول والإحساس بالذنب هو الذى يجعلك تستغفر الله أولا بأول.

وهذا هو الذى يكشف للإنسان حجبا ويجعله فى مقام "الصديقين". ولا يصل الإنسان المؤمن إلى مقام "الصديقة" إلا إذا استغفر وأحس بأنه عبد مقصر يحتاج إلى عفو الله وإلى رحمته.

فما دمت مستغفرا كشفت لك الحجب وأتم الله عليك النعمة.

﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك﴾ (الفتح:٢).

إذن تمام النعمة لا يكون إلا بالمغفرة.. والمغفرة لا تأتى إلا بالاستغفار.

والاستغفار لا يكون إلا بالإحساس بالنقص والذنب. فإن أحسست بذنبك استغفرت. وإن استغفرت غفر لك. فإذا غفر لك بقيت النعمة. بقيت أى نعمة.

فالنعم تبقى بالاستغفار. والاستغفار عاقبته المغفرة.

والاستغفار لا يكون إلا بالإحساس والشعور بالنقص فى أفعال الإنسان وفى أقواله.

﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما﴾ (الفتح: ١-٢).

﴿ويهديك صراطا مستقيما﴾

لقد نزل عليه القرآن فإلى أى شىء يهديه ؟.

الجواب: إلى الله.. فالصراط المستقيم بدايته الشريعة ونهايته رب العزة.

لماذا تتشرع؟.. لتصل إلى الله.

لماذا تتعبد؟.. لتصل إلى الله.

إذن.. إذا أتم الله عليك النعمة هداك إلى الصراط المستقيم.

فى مقام الاستغفار.. مهما وصل الإنسان إلى النصر فى الدنيا فلا يغره

هذا النصر أبدا. وإنما يعلم أن الله نصره وفتح له لأنه غفر له. فإذا نصر فليستغفر الله من شيء قد حدث في هذا الجهاد وليستمر في الاستغفار حتى يستمر النصر. فيخشى الله على عبده أن يشغله النصر عمن نصره.. وأن يشغله الفتح عمن فتح عليه.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة النصر:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (النصر: ١-٣).

فيطلب منه أن يحمد الله على ما صنعه معه وأن يستغفر الله تعالى.. ما فائدة الاستغفار بعد النصر؟

كما قلت.. حتى لا يشغل بالنصر عن الله. وحتى يستغفر الله لنصر جديد فكلما استغفر الله تعالى نصره الله تعالى. وأعطاه فهذا مقام المقربين المجاهدين الذين يذوقون معنى القرب وهم يجاهدون فهو يجاهد ليصل بجهاده إلى الله فينتصر بما أعانه الله تبارك وتعالى ومن هنا يستمر في القرب إلى الله تعالى حتى يفتح الله عليه في مجال الجهاد.. وأن يستغفر الله تعالى فيعلمه حتى يفتح الله عليه في مجال العلم. وأن يستغفر الله تعالى في مجال عمله حتى يوفقه الله تعالى إلى عمل أحسن وأحسن.

إذن الاستغفار من المقربين إلى الله ليس ذلك في مسجد أو في زاوية من زوايا الأرض. أو في بقعة من بقاع الدنيا. لا فوق جبل. ولا في سفينة. ولا في قواقع التراب والأحجار. إنما المقربون إلى الله تبارك وتعالى. هم الذين يحركون الحياة كلها. ويصنعون بما أراد الله لهم من صنيعه الدنيا الطيبة الطاهرة.

فالمقرب.. مجاهد.

المقرب.. مزارع.

المقرب.. وزير.

المقرب.. أمير.

المقرب.. قاض.

إذن حركة الحياة بالأمة كلها. لا نجعل ذلك فى فئة قد انحصرت عن المجتمع وظلت بعيدة باسم "التصوف" وباسم "الأذكار". وإنما هم طاقة المقربون إلى الله هم الطاقة النورانية التى تنطلق بنور الله إلى الأرض.

فكل واحد من الأمة فى هذا المقام الذى يجعل الحياة فى بهجتها المطلوبة.

إذا انتقلنا إلى جزئية أخرى وهى هامة.

كلنا يصلى. أو بعض الأمة يصلى ويزكى.

يقول الله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ (المزمل: ٢٠).

ويقول الله تعالى فى عقب الحج: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ (البقرة: ١٩٩).

بعد الحج.. وقد غفر للإنسان ما تقدم من ذنبه.

هل ينطلق الإنسان اعتمادا على أنه قد غفر له؟!

غفر له ويريد أن يغفر له.. غفر له ويريد أن يغفر له.. وهكذا يأتى من الحج إلى الدنيا. ويأتى من الحج إلى زيادة الوصول إلى الله وإلى المحافظة على نعمة المغفرة حتى يلقى الله تبارك وتعالى.

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ (البقرة: ١٩٩).

ننتقل إلى معنى آخر.

وأعلموا أنه لا يتم شيء إلا بالمغفرة. أبدا. هى أعلى مقام يسعى إليه الإنسان. ويسعى إليه بالاستغفار أولا بأول.

وأكرر هذه المعانى حتى ترسخ فى أذهانكم وحتى نذهب عن الأباطيل وما يشوش العقول والأفهام.

- الاستغفار إذا كان فى أمة فهنيئا لها.

﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ (سبأ: ١٥).

إذا كان الله يبقى النعم من الفواكه ومن الخضراوات ومن غير ذلك بأنه يديمها بالمغفرة باستغفار هؤلاء. فما بالنا بنعمة القرب إلى الله.

﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ (سبأ: ١٥).

فيبقى الفرد فى الوصول. بالمغفرة وتبقى النعم بالمغفرة. وتدوم بالمغفرة. أما إذا حدث ذنب. فاعلم يقينا من هذا الدرس أن أى نعمة تريدها وأنت مصر على الذنب لا يمكن أن تتحقق لك. إطلاقا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ (البقرة: ٢٨٦).

مقدمات تثبيت القدم. وتثبيت القلب.

فهل ننصر على أنفسنا ونحن مصرون على الذنب؟! هذه جريمة والذى يهزم أمام نفسه بسيئات أعماله. فكيف يرجو الوصول؟!

أيضا فى حالنا وفى النصر على أعدائنا. إذا كنا لم ننتصر علي أنفسنا الأمارة بالسوء. وكأن هناك إصرار على الذنب فى أفعالنا فكيف يأتى نصر

الله تبارك وتعالى؟!

﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فــي أمرنــا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ (آل عمران: ١٤٧).

إنها أمور مرتبة وألفاظ واضحة. يأتى هذا بعد هذا. وهذا بعد هذا. فــإذا انشغلوا بأنهم عرفوا ذنوبهم فلجأوا إلى الغفار سبحانه وتعالى وإلى الغفــور الرحيم يزول عنهم ما هم فيه من بلاء ومن فتن ومن معــاص ومــن هنــا ينتصرون على أعدائهم كما انتصروا على أنفسهم. إذن هى مسألة بسـيطة لا تعقيد فيها وكررت الألفاظ فيها كثيرا. والمعانى فيــها كثــيرة حتــى نفــهم بوضوح وحتى نعلم أن الذى يشغل بذنبه هو الذى يستغفر الله تعالى.

والذى يستغفر الله تعالى بصدق هو الذى يغفر الله له ويعطيه نعمة المغفرة.

ومن أعطى نعمة المغفرة يسر له كل شىء يريده مهما كان ومهما حدث.

نعم الله تعالى تتمناها الأمة فى كل حال.

إنما نأتى إلى قول الله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كــان غفــارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعــل لكــم جنــات ويجعل لكم أنهارا * ما لكم لا ترجون لله وقارا﴾ (نوح: ١٠-١٣).

فمن أراد ذلك فهذا الاستغفار يأتى به.

من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجــا ورزقه من حيث لا يحتسب.

هذه غايات مشروعة. ولكن الواصلين إليه يتخذون النعم وسيلة لا غايــة. فيستغفر الله لتأتى النعم. وتأتى النعم ليصل بها إلى الله.

فإذا رزق بنعمة تقرب بها إلى الله. إن رزق بمال استخدم المــال فيمــا يرضيه. وإن رزق بتجارة جعل تجارته فسحة لمرضاته. إذن يتخذون النعمة

وسيلة إليه. فقد استغفر الله من أجل كثرة النعم. فجاءت النعم فاتخذها وسـيلة إليه مرة أخرى.

رابعا: استعمال نعمه فى الوصول لمرضاته تعالى نوع عظيـم من الاستغفار:

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى: ١١).

أى فحدث ربك من النعمة التى أنعم الله بها عليك.

فإذا أنعم عليك بمال فتصدق منه وأعط كل ذى حق حقه.

وإن رزقك بجاه فكن عادلا. وإن أنعم عليك بعلم فعلم الناس وهكذا.

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ فحدث الناس. لا تعمل نشرة فـى الصحـف (عندى ثلاجة وعندى بوتاجاز وعندى سجاجيد وعندى قصر) لا.

فالمراد بالتحديث والتحدث هو الله. وأما بنعمة ربك فحدث ربك. فعندمـا نقول إن الاستغفار يأتى بالنعم. نقول. تستخدم النعم وسيلة إليه مرة أخـرى. فهو الذى أنعم وهو الذى ينتظر من عبده كيف يتصرف فى هذه النعم.

﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ (التكاثر: ٨).

النعمة التى وصلت إلى العبد بالاستغفار. والنصر الذى وصل إلى العبـد بالاستغفار. والرغد الذى وصل إلى العبد بالاستغفار وإلى الأمة. تنتقل بـهذه الوسائل إلى الله مرة أخرى حتى تستمر الأجيـال بنعـم الله. وبـإرادتك أن تسخر هذه النعم لعباد الله تبارك وتعالى.

إذن أنت خير الناس.

"خيركم من تعلم القرآن وعلمه. وخيركم من تعلم العلم وعلمه".

إذن الذى يعطى هو الذى يحبه الله. وهو القريب إلى الله.

أما الممسك العابد بستة آلاف وبسبعة آلاف أو بمائة ألف وأمسك العطاء

عن العباد. فهذا إنسان مقصر وإنسان قد عصى الله تبارك وتعالى فى أهم ما يريده الله منه.

إن الله غنى عنا وعن عبادتنا.. وإنما إذا جاء واحد لعابد عنده مال وقال: يا فلان إنى أريد أن أذهب إلى المستشفى (وهو المريض) يعنى يريد مـــالا. مائة جنيه.. خمسين جنيها أو عشرة ليشترى الدواء.

يقول له: الفاتحة بالشفاء.

الفاتحة عبادة ولكن هذا إنسان مريض محتاج. أو إنسان ليس عليه ثـــوب ويريد أن يكسى. أو إنسان جائع.

فالذى يمسك عن الناس ولا يحدث الناس بنعم الله مع كثرة الذكر وكـــثرة السجود ومع كثرة قيام الليل. هذه أمور نوافل.

أما الفرائض. التى جعلها الله تبارك وتعالى أمرا.

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى: ١١).

كما علمتم قصة الأعمى والأقرع والأبرص.

عندما جاء إلى الأقرع وقد أزال الله مرضه. وإلى الأبرص وقـــد أزال الله مرضه فقال له: أريد شيئا مما أعطاك الله.

فقال: أعطانى الله! ورثت هذا كابرا عن كابر. فأرجعه الله إلى ما كـــان. أما الأعمى فقد حمد الله تبارك وتعالى. وهذا ما أنعم الله به على فخـــذ مـــا شئت. فقال: بارك الله لك.

إذن هناك أمثلة فى السنة. أمثلة فى العطاء. عندما ينعم الله على عبد بعد فقر. فلا بد وأن يستخدم النعمة لمرضاته مرة أخـــرى. إن اســـتغفر الله. أو طلب من الله أو دعا الله. فاستجاب الله له. ثم واجب عليه أن يمد هذا العطاء للآخرين لأنها مسئولية المؤمن الواصل. الذى يصل إلى الله تبارك وتعـــالى

بما يحبه الله تبارك وتعالى.

والله تعالى يحب إنسانا جاء ذكره في حديث رسول الله ﷺ:

"والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

لن يؤمن أحدكم.. هذا الإيمان ناقص. فأنت في نعمة فلا بد لأخيك أن يتذوق هذه النعمة كذلك.

"والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا. ولن تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم.. أفشوا السلام بينكم".

وإفشاء السلام هو بالقول وبالفعل. يعنى إذا مررت على مسلم وقلت السلام عليكم. وهو جائع. فالسلام عليه أن أنقذه من جوعه (لا أسلم عليه وأنصرف) سلام بالقول كالببغاء.

إنما أفشوا السلام بينكم. هو السلام الذى تتربى به الأجيال حتي ننتقل إلى أجمل المعانى. فهؤلاء هم أهل الله يحافظون على خلق الله.

أما أهل الله يضيعون أهل الله! وفى هذا معنى قابل إن شاء الله.

خامسا: رؤية وجه الله تعالى بالمغفرة بعد دخول الجنة التى شرطها أيضا المغفرة:

إذن اتخذنا النعمة للوصول إليه بما شرع الله وأن يعطى كل ذى حق حقه. يقول الله تبارك وتعالى فى هؤلاء هل عاقبة هؤلاء الجنة أم عاقبتهم النار؟

﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (يونس: ٢٦).

دخلوا الجنة. فيأتى ذكرها وشأنهم فيها: ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ (محمد: ١٥).

جاء بالمغفرة بعد النعيم. لأنهم شغلوا بشـــهواتهم. وشـــغلوا بـــالحور العيـــن فأراد الله أن يهيأهم بمقام أعلى وإلى مقام أسمى وأجل لأنـــهم عبـــدوا الله ابتغـــاء مرضاته وابتغاء وجهه. فتم الرضا فأدخلـــهم الجنـــة. فبقـــى أن يـــرى وجهـــه. فحدث النعيم الأول. فحمدوا الله تعالى. فكملت النعمة الأخرى العظيمة الباقية.

وهى رؤية جل وعلا. ومغفرة من ربهم.

فتجمل الله عليهم بالمغفرة وهنا يخاطبهم جل وعلا كما جاء فى الحديـــث الصحيح. معنى الحديث..

ينادى الله تبارك وتعالى على أهل الجنة:

يا أهل الجنة هل رضيتم؟

فيقولون: وكيف لا نرضى (معنى الحديث) وقـــد نجيتنـــا مـــن عذابـــك وأدخلتنا جنتك.

فيقول الله تعالى: عندى المزيد. يحل عليكم رضاى فلا أسخط عليكم أبدا. هل رضيتم؟

فيقولون: وكيف لا نرضى. وقد نجيتنا من عذابك وأدخلتنا جنتك وأحللت علينا رضوانك.

فيقول الله تعالى: عندى المزيد. وهنا تكشف الحجب. فيرى الخلائق فـــى الجنة رب العزة كما يرى القمر ليلة البدر

[أى لا يشك أحد فى رؤية القمر فى ليلة الرابع عشر. لا علـــى ســـبيل التمثيل والتشبيه وإنما على سبيل التثبت والتأكد].

ويرى الخلائق ربهم. هذه هى الغاية. غاية المغفرة.

ويقول العارفون: عندما يرى الخلائق رب العزة لـــو يطلـــب منـــهم أن يرجعوا إلى الجنة مرة أخرى. لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار من النـــار.

لأن لقاء الحبيب هو الغاية. وهنا نضرت الوجوه وأصبحت ناعمة.. وتم على البشرية كمالها فلا نقص حينئذ. وما كان الكمال إلا لأهل الكمال. وما اعتبر أهل الكمال أنهم على كمال وزكوا أنفسهم وإنما سعوا بمشاعرهم. وأنهم على نقص يطلبون المزيد.. وهنا تجلى الله عليهم.

﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣).

ناظرة.. اسم فاعل: أى تحقق النظر لا تشبيه ولا تمثيل.

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١).

لا ينظر وجهه الإنسان إلا إذا تحقق أمله. والجنة بعض أمل.

والحور عين جزء من كل. فالكل. لا يختلف فيه إثنان لأن المشاعر فى إيمان يتكامل لا تكون الغاية تفاحة. أو خيارة أو برقوقة. أو ملوخية أو طير. لا.. إن غاية الكبار هى غاية كبرى.

ولا يعدل هذه النعمة.. أى نعمة هى نعمة التدانى حتى ذهب التدانى وكان مقام القرب. وذهب مقام القرب فكان مقام الشهود. وذهب مقام الشهود وجاء مقام المشاهدة. فشهد الناس ربهم. فمن يريد وجه الله تعالى. المغفرة. والمغفرة بالاستغفار. والاستغفار عند الإحساس بالذنب. والإحساس بالذنب فى أول حدوثه. هذا هو مقام المغفرة إذا علمنا إننا مذنبون.

والله تعالى يقرب عباده. وهو أعلم بأنهم بشر.

كل بنى آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون.

فإن انتصرت بهذا المعنى .. أصبحت أفضل وأجل من الملك. لأن الملك فطر على الطاعة. أما أنت فقد ظللت تستغفر. تستغفر. تستغفر. تستغفر بلا ملل حتى تصفو نفسك وحتى تصلح لمقام رؤية الحق يوم القيامة.

والله أعلم..

